محمد شعبان

وجوه منسية

من التاريخ العربي والإسلامي

دارك

مقدمة

منعطفات التاريخ مليئة بشخصيات لعبت أدوارا بارزة في تحريك كثير من الأحداث المفصلية، والتي تركت آثارها على جميع الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ونظرًا لاختلاف مضمون وأهداف هذه الأحداث، فقد كان من الطبيعي أن يقف محركوها في مرمى الجدل والتقييم والنقد، أو حتى الرصد التاريخي الموضوعي.

يظهر ذلك بصورة جلية في الحركات المناهضة التي قادها كثيرون ضد الخلافة الإسلامية في مختلف المراحل التاريخية، ونظر لها مؤرخون باعتبارها حركات زندقة وخروج عن الدين، في حين رآها آخرون هبّات ثورية ضد أوضاع سياسية واجتماعية سيئة بسبب سياسات الحكام الجائرة، فيما تجاهلها فريق ثالث ولم يقترب منها بالمدح أو الذم.

ويتمثل ذلك أيضا أمام تجارب قادها البعض لإحداث تغيير جدي وملموس على أرض الواقع، بغض النظر عن مدى نجاح هذه التجارب أو فشلها، وخير من يعبر عن هذه الحالة تجربة السان سيمونيين في مصر، وهم أشخاص جاءوا من فرنسا إلى مصر، ليحققوا في دولة محمد علي باشا ما عجزوا عن تحقيقه في بلادهم، فاحتضنهم الوالي الطموح، وأفسح لهم المجال، فأنشأوا عدة مشروعات تنموية كان لها صدى اقتصادي واجتماعي وثقافي

ملموس، لكن تجربتهم لم تستمر طويلاً وانتهت بما لها وما عليها.

هناك أيضًا الحركات التي لم تكتمل وكان من شأن استمرارها تغير كثير من موازين القوى، وتحويل مسارات التاريخ، ولعل أبرز ما يشار إليه في هذا السياق تلك الثورة المسلحة التي اندلعت ضد الإنجليز بمطروح والواحات، وكان من الممكن أن تغير كثيرا وكثيرا، لولا أنها ذحرت من قبل قوات الاحتلال.

هذه الأحداث وغيرها وقف وراءها كثيرون، يضعهم هذا الكتاب تحت المجهر ليبرز ملامح مسيرتهم، وبصماتهم وآثارهم، اعتمادًا على مصادر تاريخية تناولت هذه الشخصيات من جوانب شتى، وزوايا متباينة، دون أن يطغى جانب على آخر.

ويتناول الكتاب شخصيات لا يوجد بينها رابط، سوى أن كل فصل يسلط الضوء على جانب معين قد يكون منسيًا أو غير معروف، استنادًا إلى مصادر تاريخية. ومن هؤلاء «به آفريد بن فردردينان» الذي قاد حركة دينية وسياسية ضد الخلافة العباسية في بلاد فارس، مرتكزًا إلى مزيج من الأفكار الإسلامية والزرادشتية، وبابك الخرمي الذي حرك ثورة ضد نفس الخلافة ووصفها عدد من المؤرخين بـ «الاشتراكية»، وكذلك القائد العسكري الفاطمي بدرالدين الجمالي وما أثير حول أنه كان مسيحيًا وأنه أخفى ذلك حفاظًا على نفوذه، إضافة إلى سباتاي زيفي زعيم طائفة «الدونمة» اليهودية، والتي نشأت في أحضان الدولة العثمانية، وأعلن أفرادها الإسلام ومارسوا طقوسه في العلن، لكنهم كانوا

يدينون باليهودية في الخفاء.

ومن الشخصيات التي يتطرق لها الكتاب الرحالة التركي أوليا چلبي الذي صاغ روايات خيالية وأسطورية حول السلطان العثماني سليم الأول ليبرر غزوه لمصر، والرحالة العربي إلياس الموصلي الذي قام في عام ١٦٦٨ برحلة لأمريكا، أو كما كانت تسمى في ذلك الوقت بـ «بلاد الهند الغربية»، لأسباب دينية وسياسية واقتصادية، ودون مشاهداته هناك عن الهنود الحمر كأول عربي تطئ قدماه هذه البقعة.

يتناول الكتاب أيضًا البطاركين القبطيين أبرام السرياني ويوحنا الخامس عشر واللذين واجها تسري الأقباط بالجواري في القرنين العاشر والسابع عشر، ودفعا حياتهما ثمنًا لذلك، والبابا كيرلس الرابع الذي قاد إصلاحًا كنسيًا داخل الكنيسة المصرية في منتصف القرن التاسع عشر، وألغى الجزية عن الأقباط، وألحقهم بالجيش المصري.

ويستعرض الكتاب ملامح من مسيرة بروسبير أنفوتان الذي جاء من فرنسا إلى مصر في عهد محمد علي باشا مع رفاقه الـ «سان سامونيين» ليحققوا أحلامهم التي عجزوا عن تحقيقها في بلادهم، وكذلك رئيس الحكومة الفرنسية جول دو بولياناك والقنصل الفرنسي في القاهرة دورفيشي واللذان حرضا محمد علي على غزو الجزائر لتحقيق أهداف بلادهما في المنطقة، فضلًا عن تناول صراع القنصلين الفرنسي برناردينو دورفيني والإنجليزي هنري سولت

وغيرهما من القناصل على تهريب آثار مصر في القرن التاسع عشر.

وكان للسيدة زبيدة محمد البواب، نصيب في هذه السطور، من خلال قصة زواجها من قائد الحملة الفرنسية «مينو»، وكيف سارت حياتها بعد رحيل الحملة، وكذلك الأمر لإسماعيل المفتش وزير المالية في عهد الخديو إسماعيل على خلفية الجدل الذي أثير حول طريقة اختفائه.

وتتناول سطور الكتاب أيضًا علي محمد الشيرازي، الذي اعتبر نفسه مهديًا منتظرًا، فادعى انه يُوحى إليه، وأسس فرقة دينية تسمى «البابية» بالعراق في منتصف القرن التاسع عشر.

كما تناول الكتاب الوالي العثماني على طرابلس الغرب أحمد راسم باشا، والذي سعى لتوطين الأكراد في ليبيا في نهاية القرن التاسع عشر، حتى تتخلص الدولة العثمانية من ثوراتهم، وكذلك الألماني بول فريدمان الذي خطط لإقامة دولة لليهود في منطقة مدين السعودية، والأمريكي إسرائيل زانغويل الذي سعى لتوطين اليهود في ليبيا بموافقة عثمانية.

لا يغفل الكتاب أيضًا ضابط المخابرات الروسي عبد العزيز دولتشين، والذي أرسلته بلاده لاستطلاع أحوال المسلمين في موسم الحج، فذهب إلى الحرم المكي ودوّن مشاهداته، وكذلك المجرية ماري دي توروك التي تعرف عليها السلطان عباس حلمي الثاني في باريس وتزوجها وغيرت اسمها إلى جويدان عبدالله، ثم

ظلقت من السلطان وكتبت مذكراتها عن الفترة التي عاشتها في مصر وكشفت العالم السري لقصور الحريم.

ولا يتجاهل الكتاب القائد العسكري المصري محمد حرب صالح، الذي قاد عام ١٩١٥ أول ثورة مسلحة ضد الإنجليز في مصر بمطروح والواحات، وكان من الممكن أن تغير كثيرًا من الأمور لولا دحرها.

محمد شعبان

*****

به آفريد..

مزيج الإسلام والزرادشتية في مواجهة الخلافة العباسية

مقدمات عديدة شهدها أواخر العصر الأموي، وبداية العصر العباسي أفضت إلى تشكيل حركات دينية وسياسية في مواجهة الدولتين الإسلاميتين، كان أبرزُها حركة «به آفريد» في إيران، والتي ارتكزت إلى موروثات زرادشتية مطعمة بتعاليم إسلامية.

يذكر خالد عزام في «موسوعة التاريخ الإسلامي/العصر العباسي»، أن حركة «به آفريد» أقدم الحركات الدينية السياسية التي ظهرت في خراسان في أواخر عصر الأمويين، وأثناء استفحال الدعوة العباسية هناك، واستمرت بعد تأسيس الدولة العباسية.

صاحب هذه الحركة، التي ظهرت عام ٧٤٧، رجل يقال له به آفريد بن فردردينان، من قرية روى من مدينة أبرشهر الإيرانية، وكان

مجوسيًا زرادشتيًا تكهن وادعى النبوة.

إحياء الديانات المجوسية

بحسب «عزام»، لا يمكن فصل ظهور هذه الحركة عن السياق السياسي والديني الذي شهدته تلك الفترة التاريخية؛ فقد حاولَ التنظيم العباسي في خراسان أن يكسب أتباعًا من سكان الأقاليم الشرقية قبل الثورة العباسية، مستغلين الوضع المتردّي الذي كان يعيشه هؤلاء، فأحيا فيهم آمالًا كبيرة إن هم أيّدوا الثورة، وبذلك ظهرت من جديد في تلك الأقاليم بعضُ تعاليم الديانات المجوسية (الزرادشتية والمانوية والمزدكية)، متلبسة بثوب إسلامي أحيانًا، أو بعبارة أخرى جاءت تلك التعاليم متطورة عن تلك الديانات بعد تأثرها ببعض تعاليم الدين الإسلامي.

وبعد نجاح الثورة وتأسيس الدولة وإهمال الأقاليم الأخرى، قامت تلك العناصر الفارسية بحركات ضد الحكم العباسي في محاولة منها لإعادة مجدها الغابر، وإنهاء الحكم العربي في تلك الأقاليم، وكان من بين هذه الحركات حركة «بها فريد».

يذكر غلام حسين صديقي في كتابه «الحركات الدينية المعارضة للإسلام في إيران في القرنين الثاني والثالث الهجريين»، أن خراسان كانت تشهد في ذلك الوقت حالة من عدم الاستقرار؛ فمن جانب كان نصر بن سيار الليثي الكناني آخر ولاة الأمويين على خراسان يقاتل حارث بن شريج الذي ثار على الدولة الأموية

واستولى على أجزاء منها، حيث انطلق من بلدة الفارياب جنوب غرب إيران إلى بلدة بلخ، فدخلها، ثم الجوزجان، ثم الطالقان، ومرو الروذ (بالقرب من الحدود الأفغانية حاليًا).

ومن جانب آخر، كان ابن سيار في نزاع مع الثائر جُديع بن علي الكرماني الذي كان يخاف شره فسجنه، لكن الكرماني فرّ من السجن، واجتمع معه ثلاثة آلاف رجل، وخرج من جرجان وتغلب على مرو، ثم ظهر أبو مسلم الخراساني، فاتفق معه على قتال ابن سيار.

تزامَن ذلك مع إرسال زعيم الدولة العباسية، قبل ظهورها، إبراهيم بن محمد الإمام دعاته إلى خراسان حيث التحق به عدد كبيرٌ من الناس، كما كان أبو مسلم الخراساني بصدد إعلان دعوته للخلافة العباسية أيضًا. وفي الحقيقة لم يكن في خراسان حاكم قوي يسيطر عليها.

ويبدو أن «به آفريد» وجد في هذه الظروف القلقة فرصة مناسبة للترويج لدعوته، وإعلان نبوّته المزعومة، بعدما لاحظ استعدادًا لدى الناس للثورة ضد العرب، وكان لقوة شخصيته، دور في تصاعد شأنه، فالتفّ عددٌ كبيرٌ من الناس حوله من مدينة زوزن وقرى خواف وزاوة بنيشابور ومناطق أخرى.

غير أن ما ساهم في تزايُد أعداد مؤيدي «به آفريد» أيضًا، أن عددًا من الإيرانيين في هذه المناطق ومناطق أخرى آنذاك كانوا قد بقوا

على دينهم القديم، ولم يعتنقوا الإسلام، وكانت المراسم والشعائر الدينية تتسم بالحرية النسبية، ما سهّل عليه استقطابهم.

قميصٌ أخضر من الجنة

بحسب الروايات التاريخية، فإن «به آفريد» قبل أن يعلن عن نفسه نبيًا ذهب إلى الصين، وبعد عودته منها جلب معه قميصًا أخضر ناعمًا دقيقَ الصُنع، وعند وصوله إلى بلده في خراسان صعد ليلًا إلى قُبة أحد المعابد دون أن يراه أحدٌ، ولكن رآه في الفجر أحد الفلاحين، ثم تجمّع الناس حوله، فزعم أنه صعد إلى السماء في فترة غيابه عن الأنظار وهناك شاهد الجنة والنار، وأن الله قد منحه هذا القميص الغريب الذي كان من الجنة.

انتشرت الرواية بين الناس، وتزايد عدد أتباعه، فتحرك «به آفريد» في نيسابور قبل إعلان الثورة العباسية في رمضان سنة ١٢٩هـ/ ٧٤٧م، ولم تقف قيادة الدعوة العباسية ضده، بل على العكس استفادت منه أول الأمر باعتباره عاملًا جديدًا يزيد من إضعاف الأمويين في خراسان.

مزيج الإسلام والزرادشتية

ادعى «به آفريد» النبوة، وأظهر كتابًا باللغة الفارسية زعم أنه أوحي به إليه، ودعا إلى نوع مُعدّل من الزرادشتية المجوسية، وبشّر بأنه خليفة زرادشت الذي اعترف به أنه نبي، إلا أنه رفض بعض تعاليمه وأدخل بعض التعديلات الأساسية عليها بما ينسجم

مع مبادئ الإسلام وتعاليمه.

ويبدو أن «به آفريد» كان على دراية بأصول وآراءالمسلمين والتي أثرت في شخصيته، كما أنه كسب شيئًا من المعرفة خلال زيارته للصين وبلاد ما وراء النهر، ما ترتب عليه خروجه بهذه التعاليم الممزوجة بين الإسلام والزرادشتية.

ويذكر المستشرق الإنجليزي إدوارد براون في الجزءالأول من كتابه «تاريخ الأدب في إيران»، وترجمه للعربية أحمد كمال الدين حلمي، أن «به آفريد» أمرَ أتباعه أن يتركوا شعورهم تطول، وأن يتوقفوا عن الزمزمة عند الطعام وعدم شرب الخمور، والابتعاد عن أكل الميتة ونكاح الأمهات والبنات والأخوات وبنات الأخ، ولم تكن هذه الأمور محرّمة في التعاليم الزرادشتية، لكنه أخذ تحريمها من تعاليم الإسلام، غير أنه أمرَ أتباعه بالسجود إلى عين الشمس على ركبة واحدة، وأن يولّوا وجوههم دائمًا شطرها.

وفرضَ «به آفريد» على أصحابه سبعَ صلوات، إحداها في توحيد الله وعبادته، وثانيها في خلق السماء والأرض، وثالثها في خلق الحيوان ورزقه، والرابعة في الموت، والخامسة في البعث والحساب أو القيامة ويوم الحشر والحساب، والسادسة في أهل الجنة والنار وما يتدارك من أجلهم، والسابعة في مدح أهل الجنة.

ومن تعاليمه الأخرى أنه حدّد مهر المرأة بأربعمائة درهم،آخذًا في الاعتبار الأوضاع المالية السيئة في خراسان، حيث كان الكثيرون

يغالون في تقدير هذه المهور، ما ساهم في زيادة شعبية حركته.

كما أمرَ أتباعه بالامتناع عن ذبح الحيوانات إلا إذا هزلت وضعفت، وأن يتبرّع كلّ منهم بسبع ما لديه من مال لتُصرف على الأعمال العامة، مثل تعمير الطرق وإصلاح القناطر.

وقال «به آفريد» بحلول الروح، وكان من الداعين إلى مذهب الرجعة، معتبرًا أن الإنسان عندما يموت لا ينقطع عن الدنيا وإنما يختفي في مكانٍ ما، وإذا مات سيعود إلى هذه الدنيا قبل يوم الدين. وربما أخذ الرجل هذا المبدأ من بعض الفرق الإسلامية المتطرفة (الغلاة) آنذاك.

وبحسب «صديقي»، فإن بعض هذه الشرائع والرسوموالآداب تعارض ما هو موجود عند الزرادشتيين في ذلك الوقت، وأن وضعها دليل على جرأته وجسارته، لكن يجب التأكيد على نقطة، وهي أنه منذ قرن قبل الفتح العربي وانتشار الإسلام في هذه المناطق، كان الكثير من الناس لا يؤمنون بدين زرادشت ولا يمارسون الطقوس الدينية بشكل مُرتّب.

لذا ليس من المستبعَد أن «به آفريد» شعر بحاجة الناس للمحافظة على أصول الدين الذي كان يهدّده الخطر ففكر في إصلاحه، خاصة أن معنويات الناس ازدادت مع اضطراب الوضع السياسي وشيوع الفتنة، لذلك كان من السهل في مثل هذا الوضع تغيير التعليمات الدينية والإتيان بأخرى.

ورغم ذلك، يطرح «صديقي» تساؤلات لم يجب عليها المؤرخون، منها إذا كان «به آفريد» يعترف بزرادشت نبيًا، فلماذا إذًا عارض بعض معتقداته؟.. هل كان يعد نبوته أعلى من زرادشت؟.. أم أنه كان يتهم أتباع زرادشت بتزييف العقائد وتغيير تعاليمه؟

نهاية «به آفريد»

على كلٍّ استمر «به آفريد» في دعوته وعندما جاء أبومسلم الخراساني إلى نيسابور، لجأ إليه عدد من رجال الدين الزرادشتي بعدما اعتبروا «به آفريد» عدوًا لهم ومنشقًا عنهم، وأطلعوه – أي الخراساني» على تعاليمه الجديدة، وقالوا «إنه أفسد دينكم وديننا»، وطلبوا منه أن يقتله ويريحهم منه، فأرسل أبو مسلم شخصين من أتباعه إليه، وهما شبيب بن واج الرورزي وعبد الله بن سعيد، وعرضوا عليه الإسلام، وصار «آفريد» مسلمًا ورفع شعار العباسيين.

ورغم إعلان «به آفريد» عن إسلامه، لكنه لم يكفّ عن التنبؤ، أي ادعاء النبوة، فجاء عبد الله بن سعيد إلى مدينة زوزن على رأس جيش وقبض عليه في جبال بادغيس، وجلبه إلى نيسابور وأمرَ أبو مسلم بقتله، وشُنق على باب جامع نيسابور وقُضي على أتباعه، وكان ذلك في عام ٧٤٩.

مصير الـ «آفريديين»

لم تنتهِ أفكار «بها فريد» بموته، فكما يقول أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني في كتابه «الآثار الباقية عن القرون الخالية»، بقي

أتباعه الذين يُطلَق عليهم «الآفريديين» يؤمنون بأفكارهم ويعادون الزرادشتيين بشدة، ويؤمنون أن مؤسس طائفتهم صعد إلى السماء راكبًا على جواد، وأنه سينزل بسرعة وينتقم من الأعداء، وهو أيضًا ما ذكره أبو الفتح محمد الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل».

وروى أبو فرج محمد بن إسحق النديم في كتابه «الفهرست»، أن مذهب «به آفريد» استمرّ إلى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ولعلّ ثبات الآفريديون على معتقداتهم يعود بعضه إلى اعتقادهم بحتمية رجوع مؤسس طائفتهم.

وبحسب «عزام»، كان الدافع وراء حركة «به آفريد» سياسيًا أكثر منه دينيًا، لأنه طمع بسياسته التوفيقية بين المجوسية الزرادشتية والإسلام في أن يضم إلى حركته المجوس إضافة إلى الموالي الفرس الذين لم يكن قد مضى على إسلامهم وقتٌ طويلٌ، وصولًا إلى تحطيم السيادة العربية والإسلامية على بلاده.

حركة «أستاذ سيس» امتداد للآفريدية

في عام ٧٦٧ ثار شخص يدعى «أستاذ سيس» على العباسيين، وبحسب «عزام» كانت أفكار هذا الرجل امتدادًا لتعاليم «به آفريد». ويذكر ابن الأثير الجزري في كتابه «الكامل في التاريخ» أن «سيس» «ادعى النبوة وأظهر أصحابه الفسق وقطع السبيل».

وفي كتابه «الدعوة العباسية ـ مبادئ وأساليب»، يذكر الدكتور حسين عطوان، أن ٣٠٠ ألف مقاتل من أهل هراة وباذغيس

ومسجستان اجتمعوا حول «أستاذ سيس»، فاحتل بهم مناطق واسعة من خراسان، ثم سار بهم إلى منطقة مرو الروذ، فاستولى عليها، وقتل القائد العباسي الأجشم المرورذي، واستباح عسكره، وهزم عددًا من القواد الذين تعرضوا له.

وأمام هذه التطورات، وجّه إليه الخليفة أبو جعفر المنصور خازم بن خزيمة التميمي في جيش، فدحرهم «أستاذ سيس»، وأوقع بهم هزيمة.

بعدها عاد ابن خزيمة، ونظّم جيشَه واستعدّ للقتال، واستطاع إلحاق الهزيمة بأتباع «أستاذ سيس»، فقتل منهم سبعين ألفًا وأسرَ ١٤ ألفًا، فهرب «سيس» في نفر يسير من أصحابه، واختبأ في جبل، فحاصره ابن خزيمة وقتل الأسرى.

وإزاء هذا المتغيّر، احتكم الطرفان إلى حُكم أبي عون عبد الملك بن يزيد الأزدي، أحد القادة العباسيين الأوائل في منطقة جرجان الإيرانية، فحكمَ أن يوثق «أستاذ سيس» وبنوه وأهل بيته بالحديد، وأن يُعتق باقي أتباعه، وعددهم ٣٠ ألفًا، فأمضى ابن خزيمة حكم «الأزدي»، وكسا كل رجل ثوبين.

وبحسب «عطوان»، لم يشر أكثر المؤرخين إلى نهاية «أستاذ سيس» باستثناء أحمد بن يعقوب، الذي ذكر في كتابه «تاريخ اليعقوبي»، أن خازمًا «أسره إلى أبي جعفر في بغداد، فقتله».

وينقل «براون» عن المستشرق الأسكتلندي ويليم موير الذي ألّف

ثلاثة كتب عن الخلافة الإسلامية منها «تاريخ الخلافة الأولى»، أن «الخيزران» زوجة الخليفة العباسي أبو عبدالله محمد المهدي (٧٤٤-٧٨٥) وأم الهادي وهارون الرشيد كانت أخت «استاذ سيس».

* * * * *

بابك الخرمي

قائد الثورة الاشتراكية ضد الخلافة العباسية

في عام ٨١٦هـ، بدأت ثورة بابك الخرمي ضد الدولة العباسية، ولم تستطع جيوش الخلافة آنذاك القضاء عليها إلا بعد ٢٠ عامًا، استطاعت خلالها الحركة ضمّ أتباع ورقع جغرافية مثّلت تهديدًا حقيقيًا لدولة بني العباس وزعزعت استقرارها.

يذكر محمد مصطفى هدارة في كتابه «المأمون.. الخليفة العالم»، أن حركة البابكية هي نتاج للعقائد التي بشّر بها أتباع عبد الرحمن بن مسلم الخراساني وتلمواحد هاشم بن حكيم المقنع (قاد ثورة شعبية في خراسان عام ٧٧٦)، والقائلة بتناسخ الأرواح وتجسد الذات الإلهية في أشخاص.

وابن مسلم الخراساني، صاحب الدعوة العباسية في خراسان، وكان واليها، وهو -حسب روايات أتباعه- واحدٌ من أحفاد آخر الأكاسرة يزدجرد الثالث، والذي تنبأ بدوره بعودة الحكم لأحفاده. ومع قيام الدولة العباسية ارتفعت مكانة أبي مسلم وكان محبوبًا من أتباعه، والتف حوله الفُرس والموالي لاعتقادهم أنه من أحفاد

آخر ملوك فارس؛ لذا خشي منه الخليفة أبو جعفر المنصور وقتله.

وبحسب هدارة، بعثت أفكارُ أتباع أبي مسلم الخراساني على يد بابك الخرمي، الذي ظهر في قرية بشمال بلاد فارس تسمى «البذ»، واجتمع حوله خَلقٌ كثيرون، واتسع سلطانه، حتى أوشك أن يعزل المقاطعات الفارسية عن العرب.

ويذكر أبو سعد السمعاني في كتابه «الأنساب»، أن كلمة الخرمي منسوبة إلى طائفة من الباطنية يُقَال لهم «الخرمدينية»، وهم قوم يبيحون المحرمات من الخمر وسائر اللذات ونكاح ذوات المحارم، وفعل ما يتلذذون به.

أما ابن النديم فيشير في «الفهرست»، إلى أن الخرمية صنفان: الخرمية الأولون، ويسمون «المُحمرة»، وهم منتشرون بنواحي الجبال فيما بين أذربيجان وأرمينيا وبلاد الديلم وهمذان ودينور، وفيما بين أصفهان وبلاد الأهواز، وهؤلاء أهل مجوس في الأصل.

ويقصد ابن النديم بهؤلاء أصحاب مزدك بن موبذان، الذي أمرَ أتباعه باقتراف اللذات والعكوف على الشهوات والأكل والشرب، ومع هذا يميلون لفعل الخير وترك القتال.

أما الصنف الثاني، فهم الخرمية البابكية، وصاحبهم بابك الخرمي والذي كان يقول لمن استغواه «إنه إلهٌ»، وأحدث في مذاهب الخرمية القتل والغصب والحروب، فكأن ثورته ضد الخلافة العباسية ثورة عقائدية تريد أن تطيح بالإسلام، وتقوض أركان

المجتمع بما تحدث فيه من آراء هدامة، بحسب ابن النديم.

ويذكر «هدارة»، أن الخليفة عبدالله المأمون (٧٨٦ – ٨٣٣) لم يتوانَ عن قتال الخرمية، ولكن جميع قواده الذين أرسلهم لقتال بابك قُتِلوا أو وقعوا في الأسر ولهذا أوصى عند موته أخاه المعتصم بالله (٧٩٦- ٨٤٢) باستئصال الخرمية.

ثورة اجتماعية لا دينية

ويتبنى بندلي جوزي في كتابه «من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام»، وجهةَ نظرٍ معاكسة، مفادها أن الغرض من الحركة البابكية لم يكن مقاومة الإسلام وذويه، ولا مقاومة العرب، كأمة قائمة منتصبة، كما كان الحال في أكثر الثورات السابقة لحركة بابك في بلاد العجم، بل محاربة ذلك النظام الاجتماعي الذي كانت تئن تحته الطبقات السفلى من جميع الأمم التي كانت تتألف منها وقتئذ دولة بني العباس، حتى الأمة العربية نفسها، وإن لم يشترك أبناء هذه الأمة فعلًا في الثورة البابكية.

من هذا المنطلق، كان بابك وأتباعه يرمون إلى هدم ذلك النظام المستند على أصحاب الأملاك ورؤساء الدين والجيوش المسخرة المأجورة، وإبداله بنظام جديد ليس فيه طبقات ولا نزاع مستمر بينها، ولا ظالم ولا مظلوم، ولا غني ولا فقير ولا سيد ولا عبد، بنظام مبني على العدل والإخاء والمساواة.

الرأي نفسه يذهب إليه حسين قاسم العزيز في كتابه«البابكية..

الانتفاضة ضد الخلافة العباسية»، حيث يَذكُر أن الخرمية فرقة دينية متطورة عن المزدكية (نسبةً إلى مزدك)، تؤمن بصراع الخير (إله النور) مع الشر (إله الظلمة)، وذات برامج اجتماعية ثورية محدودة تدعو إلى توزيع الأراضي على الفلاحين، وتعميم الاستفادة من المنافع العامة على الجميع، وتحرير مركز المرأة من المكانة المتدنية التي وصلت إليها، وتدعو إلى مقاومة الظلم والاستغلال، بالامتناع عن إطاعة الإقطاعيين والسلطة، ورفض الضرائب، وكان الفلاحون يمثلون الغالبية العظمى من منتسبي الفرقة.

وبحسب «العزيز»، عبّرتْ الخرمية عن سخطها واحتجاجها على الظلم الصارخ بسلسلة من الانتفاضات العارمة، كانت الحركة البابكية إحداها.

كفرة وقطاع طرق وإباحيون

ويذكر «العزيز»، أنه نتيجة نضالها المرير وكفاحها الطويل وخطرها الجسيم، وُجهت نحو البابكية أقبح النعوت والصفات، فانهم البابكيون بالإباحة والدعارة والفسق، وأنهم دعوا إلى مشاعية النساء ونهب الأموال، وأنهم قتلة سفاكون ومجرمون قطاع طرق حيث ينهبون ويحرقون البيوت في القرى والمدن، ويسلبون المارة والمسافرين والحجاج، ويقولون بتناسُخ الأرواح وبالحلول (حلول جزء من الآلهة في شخص ما) وبالرجعة، وهم ملاحدة زنادقة كفرة.

ورغم أن قِسمًا من المؤرخين العرب والمسلمين زار مناطق الخرمية واحتك وناقش الموجودين منهم، إلا أن كتاباتهم تحتوي على تُهم وأباطيل، بحسب «العزيز» الذي ينقل عن أبي الحسن المسعودي في «التنبيه والأشراف» أن البابكية كانوا ينتظرون عودة الملك فيهم وخلع الإسلام، وعن المطهر بن طاهر المقدسي في «البدء والتاريخ» قوله عن بابك «وأخذ بالتمثيل بالناس والتحريق بالنار والانهماك بالفساد وقلة الرحمة والمبالاة».

ويذكر «العزيز»، أن المقدسي ذكر عن الخرمية أنهم قوم مسالمون يتحرون النظافة والطهر لكنه لا يتورع عن اتهام بابك بسفك الدماء حتى أوصل عدد ضحاياه إلى مليون، ثم تراجَع قليلًا وجعلهم أكثر من ربع مليون.

ولا يكتفي المقدسي بهذه التهمة، فيوجّه إليه تهمة الفسق والفجور والاعتداء على أعراض أسراه «وكذا كان الملعون يفعل بالناس إذا أسرهم مع حرمهم»، حسبما نقلَ العزيز.

وينقل «العزيز» عن عبد القاهر البغدادي في «الفرق بين الفِرق»، قوله إن دعوة بابك كانت تدعو إلى استباحة المحرّمات، وأنه كانت «للبابكية في جبلهم ليلة عيد يجتمعون فيها على الخمر والزمر ويختلط فيها رجالهم ونساؤهم، فإذا أطفئت سِرَجهم ونيرانهم افتض فيه الرجال النساء على تقدير من عز بز».

أما عن معاملة بابك وأشياعه لأصحاب الدين الإسلامي ونظرهم

إلى الدين الإسلامي، فهناك أدلة كافية تشهد بتساهلهم الديني، ومجاملتهم لأصحاب الدين، فقد ذكرَ عبد القاهر البغدادي في «الفرق بين الفرِق»، وهو عدو البابكيين الألد، أن بابك وأتباعه –وأكثرهم على دين زرادشت– لم يمنعوا المسلمين المقيمين بينهم من التمسك بدينهم وإقامة شعائرهم علنًا، بل كانوا يساعدونهم على بناء مساجدهم «حيث كانوا يؤذنون».

زوال هيبة العباسيين

أيًا كان الأمر، فإن الحركة لم تكن لتشتعل ضد الخلافة العباسية دون عوامل مهدت لذلك. يذكر خالد عزام في «موسوعة التاريخ الإسلامي / العصر العباسي»، أن بابك استغل الأوضاع المتردية في أذربيجان وأرمينيا (كانتا مقاطعة واحدة قبل خروج بابك) بسبب إعلان واليها حاتم بن هرمة العصيان بعد قتل والده هرثمة بن أعين في حضرة الخليفة المأمون في مرو، فأعلن بابك حركته عام ٨١٦، وأخذ في العبث والفساد وقتل من حوله في الأمصار المجاورة لتصفو له البلاد.

وظهر ذلك في تعدد الثورات والغرض الذي أخذت ترمي إليه، وهو الانفصال التام عن جسم الخلافة العباسية وتأليف ممالك أو إمارات مستقلة، ومنها الجمهورية التي حاول بابك أن يخلقها في جبل قراطاغ.

وينقل جوزي عن أحمد بن يعقوب في كتابه «تاريخ اليعقوبي»، أن

عمال الخليفة الكبار في أذربيجان هم الذين أوعزوا إلى بابك بالخروج على سلطانهم واعدين إياه بالمساعدة، وكان من بين المحرضين حاتم بن هرثمة زعيم تلك العائلة الكبيرة، حيث كان واليًا للخليفة على أرمينيا وأذربيجان، انتقامًا لأبيه هرثمة الذي قتله المأمون سنة ٨٢٠.

أما الظروف المناسبة التي رافقت هذه الحرب الطويلة،فتمثلت في اشتغال جيش الخليفة المأمون في ذلك الوقت بإخماد الثورات التي استعرت نارها في العراق ومصر وبلاد العرب، وكذلك رد هجمات جيش الروم الذي اجتاز الحدود، بعد أن غزا وهدم قلعة «زبطرا» سنة 812وأخذ يتغلغل في دار الإسلام وبالأخص في أرمينيا المماثلة له، والتي كاد يحتلها كلها وصار يتصرف بها وبأمرائها كما كان يتصرف ببلاده ومكانها.

انتشار الحركة البابكية

على كل، توسعت الحركة البابكية في أقاليم عديدة،شملت أذربيجان –موطنها الأصلي– وفي الجزء الشرقي من أرمينيا، وفي الشمال الغربي من إيران، فضمت أجناسًا مختلفة وأقوامًا متعددة من إيرانيين وعرب وأكراد وأرمن وأذربيجان، قاموا كلهم بانتفاضة مسلّحة بوجه الخلافة العباسية.

ويضاف إلى ذلك انشغال والي أذربيجان وأرمينيا زريق الأزدي بالحروب مع والي الموصل السيد بن أنس الأزدي من أجل السيطرة

والنفوذ، ما أدى إلى إهمال الوالي الأول للتصدي للحركة.

وفي عام ٨٣٣، أستخلف المعتصم، الذي عين قوادًاقديرين لإدارة المعارك مع الحركة البابكية كالأفشين الأشروسني، والذي تمكّن من إلحاق عدة هزائم بالحركة والسيطرة على قلعتهم المنيعة المسماة بـ «البذ»، إلا أن بابك استطاع الهرب مع بعض أتباعه عام ٨٣٧، لكن قُبضَ عليه فيما بعد، واقتيد إلى سامراء، وحُمل على الفيل لإشهاره بين الناس، ثم أعدم.

إمبراطور الروم ومساندة البابكيين

منذ قيام الحركة البابكية حتى إخمادها، كان الروم حاضرين بقوة ومساندين لها عبر مراحلها. يذكر «جوزي»، أن بابك وأتباعه بدأوا يفكرون بالخروج على خلفاء بغداد ويهيئون للثورة أسبابها منذ أمدٍ بعيدٍ قبل اندلاعها، وأنهم كانوا ينتظرون الفرصة المناسبة لإعلان الحرب على الخلافة، فجرت مخابرات سرية بين بابك وإمبراطور بيزنطة ميخائيل الثاني (٨٢٠ – ٨٢٩) ثم ابنه الإمبراطور تيوفيل (٨٢٩- ٨٤٣)، ويرجح أيضًا أن هذا التواصل بدأ قبل الثورة.

وطلب بابك من إمبراطور الروم أن يمده بجيوشه، أو أنينضم إليه بنفسه في هذه الحرب التي كان يرجى منها خير لهما جميعًا، إن انتهت بسقوط عدوهما الألد.

وظهر هذا الدعم البيزنطي في أبرز صوره عندما ساءت أمور بابك بعد عشرين سنة صرفها في مقاومة جيش الخلافة، فبرز لمساعدته

إمبراطور الروم، وحاول بمناورته على الحدود العربية أن يصرف قسمًا كبيرًا من جيش الخليفة المرابط في أذربيجان عن بابك، كما أن قسمًا كبيرًا من البابكية اجتازوا الحدود البيزنطية بعدما قُبض على بابك، ونزلوا أرض الروم على الرحب والسعة، وهناك تنصروا.

*****

بدرالدين الجمالي..

هل أخفَى «مسيحيته» ليبقِي على نفوذه؟

عندما كثرت الفتن السياسية في مصر وزادت الأزمات الاقتصادية، لم يجد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (١٠٢٩- ١٠٩٤) بُدًا من الاستعانة بوالي عكا، القائد الأرمني الأصل بدر الدين الجمالي (١٠١٥- ١٠٩٤)، للقضاء على الفوضى.

لم يمانع والي عكا من تلبية نداء الخليفة، لكنه اشترط أن يأتي بجنوده، وألا يستعين بأي جندي من مصر، ووافقه المستنصر على ذلك.

وسنة ١٠٧٣، جاء الجمالي بجيشه واستطاع القضاء على الفوضى، وآلت إليه مقاليد الحكم الفعلية، وتولى منصب الوزارة، ولُقّبَ بـ «أمير الجيوش» وهو اللقب الذي أصبح يطلَق على مَن يتولى المناصب من الوزراء والعسكريين بعد ذلك. وقام الجمالي بإصلاحات إدارية واقتصادية عدّة، وطبّق إجراءات لإعادة الأمن فبنى سورَ القاهرة وقام بتحصين العاصمة، حتى آلت الأمور إلى

الهدوء.

الوشاية بـ «خيروستوذولو»

لم يكن الجمالي بعيدًا عن المشهد القبطي آنذاك، فارتبطت به حكايات ومواقف كثيرة أبرزت قربه مما يدور في أروقة الكنيسة المصرية، إلى درجة أن بعض المؤرخين قالوا إنه كان مسيحيًا ولكنه أخفى ذلك حفاظًا على نفوذه، في حين تُظهر مواقف أخرى نقمته على البطريرك وانحيازه ضد الأقباط.

يروي القس منسى يوحنا في كتابه «تاريخ الكنيسة القبطية» أن الجمالي قبض على زمام السلطة في مصر في عهد البابا السادس والستين خيروستوذولو (١٠٤٧-١٠٧٨)، ومرةً وشى له أحد المسلمين بأن فكتور، مطران النوبة (كانت خاضعة للكنيسة المصرية)، أمر بهدم جامع للمسلمين هنالك، فغضب وأمر بالقبض على البطريرك وألقى عليه تبعة ذلك العمل، ولكن البطريرك برهن له على فساد التهمة، فأطلقه وأخلى سبيله .

وحدث أن «هرب أحد العصاة من وجه الجمالي إلى بلاد النوبة، فكلف البطريرك (خيروستوذولو) بأن يبعث أسقفًا من قبله إلى ملك النوبة يطلب منه تسليم ذلك الثائر، فأجاب البطريرك طلبه وعين لذلك أسقفًا يدعى مركوريوس، سار مع مندوبين من قبل أمير الجيوش، وبلّغوا الطلب لملك النوبة فقبض على ذلك الرجل وسلّمه إليهم وجاءوا به إلى القاهرة»، روى يوحنا.

وفي وشاية أخرى لدى الوزير، قيل له إن «كيرلس مطران الحبشة يغرر بالمسلمين هناك ويدعوهم إلى شُرب الخمر عند تناوُل الطعام، فقبض الجمالي على البابا خيرومستوذولو بصفته رئيسًا لذلك المطران، ليعاقبه عوضًا عنه».

ولحسن الحظ، كما يروي يوحنا، لم يكن كيرلس المذكورقد رُسِم مطرانًا بعد، فدفع البابا عنه التهمة، وتعهَّد بأن يرسل له الأنبا مركوريوس لتتميم رسامته ونصحه بأن يكف عمَّا يفعله، إنْ كان ما شاع صحيحًا، فاقتنع الجمالي وأطلق سراحه.

كيرلس الثاني وملك النوبة

بعد وفاة خيرومستوذولو عام ١٠٧٨، تولى البابا السابع والستون كيرلس الثاني البطريركية في نفس العام في عهد خلافة المستنصر. وعقب رسامته بقليل، تنازل سلمون ملك النوبة عن المُلك لابن أخته المدعو جرجس، وآثر العزلة والانفراد في دير أبو نفر السائح الواقع بين حدود مصر والنوبة، متفرغًا للصلاة والعبادة.

لم ينفرد سلمون بنفسه كثيرًا، إذ حاصره أهل أسوان طمعًا في ضم الدير إلى مصر وأخذوه أسيرًا وأتوا به إلى الجمالي، فقابله البطريرك وكبار الأقباط باحتفال عظيم ولقي من أمير الجيوش إكرامًا زائدًا، وخصَّص قصرًا لإقامته، وبقي في مصر حتى توفى ودُفن في دير الخندق المعروف الآن بدير الأنبا رويس بالقاهرة، حسبما روى يوحنا.

وأثناء إقامة سلمون في مصر تبادل البطريرك معه الزيارات واحتفى به وجهاء الأقباط، وكان وجوده بينهم سببًا في رفع شأنهم عند أكابر الدولة وعظمائها لا سيما أمير الجيوش الذي لما شاهد علامات الإخاء بين الأقباط والنوبيين وكذلك أبناء الحبشة (إثيوبيا) رغب في عقد معاهدة مع ملوك هاتين الأمتين لتسهيل طرق التجارة بينهما وبين مصر.

وبحسب يوحنا، كاشف أمير الجيوش كبار الأقباط بمايكنه في صدره وطلبَ منهم بذل الجهد في مساعدته، فلبّوا طلبه وشرعوا في الاتصال مع ملوك الحبشة والنوبة بواسطة البطريرك، حتى تحققت رغبة الجمالي الذي منح البطريرك مالًا يستعين به على إصلاح الأديرة والكنائس المخرّبة.

وظائف وألقاب

وتروي إيزيس حبيب المصري في كتابها «قصة الكنيسة القبطية / الجزء الثالث»، أن منزلة البابا زادت ارتفاعًا لدى الخليفة ولدى الجمالي، وشمل التقدير كلّ القبط، فتقلد عددٌ منهم الوظائف العالية في دواوين الحكومة، وكانوا في ذلك العهد قد تمكنوا من اللغة العربية.

ولم يفز الأقباط بالوظائف فحسب، ولكن أيضًا بألقاب التقدير التي كان الخلفاء في تلك الأيام يطلقونها على مَن يعرفون فضلهم، ومنها «الرئيس» و «هبة الله» و «الأمجد» و «الأسعد» و «الشيخ» و

«نجيب الدولة» و «فخر الدولة».

ولم يقتصر الأمر على ذلك. ذكر الدكتور عزيز سوريال عطية في «موسوعة تراث القبط»، أن البابا كيرلس الثاني جعلَ مقر إقامته في حصن كنيسة القديس ميخائيل في جزيرة الروضة بالقرب من حي مصر القديمة ذي الكثافة السكانية القبطية، كذلك استأنف الأقباط احتفالاتهم الدينية العامة التي كان الحاكم بأمر الله (٩٨٥-١٠٢١) قد أوقفها، وأخذت الدولة تشارك فيها رسميًا.

مساجد «الحبشة»

رغم هذه الامتيازات، وقعت بعض المناوشات بين الجمالي والبطريرك على خلفية بعض الأحداث، منها ما رواه يوحنا من أن شخصًا يُدعى كيرلس انطلق إلى بلاد الحبشة وادّعى أنه مطرانها وتسلط على كنائسها، ولما بلغ أمره البابا كيرلس الثاني حزن وقصد أن يقيم أسقفًا شرعيًا يدعى ساويرس، ويرسله إليها.

بيد أن أمير الجيوش رفضَ ذلك وأبى أن يرخّص له بسفر المطران إلا إذا وعدَه ببناء خمسة مساجد في الحبشة، وبإرسال المطران كل سنة هدية، فرضخ البطريرك، وسار ساويرس إلى الحبشة فهرب من وجهه كيرلس إلى بلدة دهلك (جزر في البحر الأحمر قبالة سواحل إريتريا)، وبلغ أمره أمير الجيوش فاستقدمه إليه وأخذ كل ثروته وقتله.

إنصاف البابا

في موقف آخر، وجد الجمالي نفسَه حكمًا بين البابا وأساقفة أرادوا الإطاحة به من منصبه. تروي إيزيس المصري في كتابها أن الأسقف «يوحنا بن الظالم» تحالَف مع أربعة أساقفة هم أخيه مرقس، أسقف سمنود، ويوحنا أسقف دميرة، وخائيل أسقف أبي صين، ومقارة أسقف القيس، ومعهم الشماس أبو غالب أحد أعيان مصر المشهورين، وتواطأوا على عزل البطريرك.

وبحسب إيزيس المصري، أعرب الأساقفة عن استيائهممن بعض الرجال المحيطين بالبابا، وطالبوا بإبعادهم.

وفي سبيل ذلك، كتبوا تقريرًا يطعن في حق البابا وطالبوا بعزله وقدموه للجمالي بواسطة رئيس بستانه وكان قبطيًا يدعى «يسيب»، وكان البطريرك متغيبًا حينئذ في الأقاليم يزور الكنائس ويتفقد الرعية.

فلما اطلع أمير الجيوش على التقرير، رأى أنه ليس له أن يحكم في الأمر من تلقاء نفسه، فأمر البطريرك بعقد مجمع من أساقفة الوجهين القبلي والبحري وكبار الأمة يرأسه أمير الجيوش ليبحثوا في الأمور المنسوبة إليه.

ولما تكامل الحضور انعقد المجمع في قطعة أرض خارج القاهرة، ثم وضع الكتاب المقدس في الوسط، وقدّم «ابن الظالم» تقريره الذي يتهم فيه البطريرك بتهم شنيعة، فقام البابا وفنّد كل تهمة تفنيدًا لا يدع مجالًا لمدّعٍ، فاقتنع الجميع وعلى رأسهم أمير

الجيوش ببراءة البطريرك ووقف وسط المجمع ووبخ الأساقفة على هذا التنابذ، ثم حثّهم على الخضوع لرئيسهم والإخلاص له وطلب منهم أن يطلبوا منه العفو، فتصافح الجميع أمامه، ثم أمر بقطع رأس عامل بستانه الذي سعى بالشر ضد بطريركه، ذكر يوحنا.

وفيما بعد، اشتغل البابا كيرلس بوضع قوانين جديدة للكنيسة سارت عليها إلى ما بعد وفاته بزمن، واهتم أيضًا بإصلاح الكنائس وتفقد الفقراء.

تذكر انك حملت كتاب وجوه منسية حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك.

المسيحيون الأرمن

والواضح أن الجمالي لم يكن على علاقة جيدة بأقباطمصر فقط، وإنما أيضًا بالمسيحيين الأرمن، وهذا ما لفت إليه أيمن فؤاد في كتابه «الدولة الفاطمية في مصر/ تفسير جديد»، إذ ذكرَ أن غالبية الجنود المصاحبين لجيش الجمالي الذي جاء به إلى مصر كانت من الأرمن المسيحيين، وبعد استقرار الأوضاع في مصر، خصص لهم حي الحسينية شمال القاهرة ليكون سكنًا لهم، كما خصّص لهم كنيسة في حي الخندق (العباسية) في القاهرة ليقيموا فيها صلواتهم.

وبعد وصولهم بقليل، وصل بطريركهم واسمه أغريغوريوس فاستقبله الجمالي استقبالًا حافلًا، وأنزله في كنيسة مار مريم في أرض الزُهري (السيدة زينب الآن)، بحسب فؤاد.

ومارس هؤلاء الأرمن طقوسَهم الدينية بحريّة تامة حتى إن ابن ميسر تاج الدين محمد بن علي ذكر في حوادث سنة ١١٣٦ الواردة في كتابه «المنتقى من أخبار مصر»، أن الأرمن تمادوا في إعلان عقيدتهم وفي بناء الكنائس والأديرة، حتى صار كل رئيس من أهله يبني كنيسة، وخاف أهل مصر من أن يغيّروا قناعات المسلمين.

جدل حول الديانة

ربما كانت العلاقة الجيدة بين الجمالي وبين المسيحيين سببًا لإشارة البعض إلى أنه كان مسيحيًا، فذكر يوحنا في كتابه أن أمير الجيوش «لم يكن مسلمًا بل مسيحيًا، وإنما أظهر التحيز للإسلام حبًا في بقاء سلطانه مرفوع الشأن».

وبحسب يوحنا، روى المؤرخ أبو المكارم سعد الله (١١٤٩-١٢٠٩) أن الجمالي مات مسيحيًا لكونه دفن في البساتين بحلوان بجوار الكنيسة الأرمنية.

كذلك ذكر عطية في موسوعة «من تراث القبط» أن الجمالي «مسيحي من أصل أرمني، يفضل الأقباط، وكذلك استقدم آلافًا من العائلات الأرمنية لكي تعيش في مصر».

ولأنه كاتب هذه السطور لم يُعثَر على مرجع عربي يؤيد أو ينفي

مسيحية بدر الدين الجمالي كما أشارت إليه المصادر المسيحية، فقد تواصل مع المؤرخ الدكتور أيمن فؤاد المتخصص في التاريخ الفاطمي، حيث أكّد أن ما ورد في بعض المراجع من أن الجمالي كان مسيحيًا وأنه أخفى ذلك غير صحيح على الإطلاق، وربما قيل ذلك لأنه جاء على رأس جيش غالبيته من الأرمن، أو بسبب أصوله الأرمينية، لكن من المؤكد أنه قبل أن يأتي إلى مصر كان مسلمًا.

وبحسب فؤاد، كان العصر الفاطمي العصر الذهبي لـ «أهل الذمة» في مصر، لأنهم حازوا على مناصب وزارية وترأسوا الدواوين، فالفاطميون كانوا «براغماتيين» استفادوا من خبرات المسيحيين بدلًا من الاستعانة بالمسلمين السُنة، وظهر ذلك بشكل واضح في عهد الجمالي وقد يكون ذلك سببًا في إشارة بعض المراجع إلى مسيحيته.

رئيس مركز الدراسات القبطية في مكتبة الإسكندرية الدكتور لؤي محمود سعيد علّق على ما أثير بشأن مسيحية الجمالي بأنه «غير صحيح بالمرة»، وذكر أن شخصيات عدة وردت في كتب تاريخ كتبها مؤرخون مسيحيون وذُكرَ أنها «تنصّرت»، مثل الحاكم بأمر الله الذي اضطهد المسيحيين وهدم كنائسهم ومنعهم من الاحتفال بأعيادهم، لكن بعض الكتب تقول إنه في النهاية أحس بتأنيب الضمير فأعاد لهم ممتلكاتهم «ثم تنصّر».

وعلى خلفية ما يسمى بـ «معجزة نقل جبل المقطم»، قيل نفس الكلام، فبعض المؤرخين قالوا إنها حدثت في عهد الحاكم بأمر الله،

وقال آخرون إنها حدثت في عهد المعز لدين الله الفاطمي (٩٣٢-٩٧٥)، وذكرت بعضُ الكتب المسيحية أنه «تنصّر» بعدما رأى المعجزة، بحسب سعيد.

وبرأي سعيد، لا يوجد ما يشير إلى احتمالية أن يكون الجمالي مسيحيًا، فلم يكن محلًا ضد الأقباط ثم انحاز لهم، أو اضطهدهم ثم أحسن معاملتهم، كما أن هذا الأمر لم يشر له أي مؤرخ معاصر له، ولم يرد في أي مصدر تاريخي آخر غير بعض الكتب القبطية التي لا يمكن الركون إليها.

وبحسب سعيد، كان من بين أسماء الجمالي «أمير الجيوش» و«كافل قضاة المسلمين» و«سيف الإسلام» وكلها أسماء تحمل اعتزازًا بإسلامه وغزواته، وهو ما يتناقض مع ما ورد في بعض الكتب القبطية.

* * * * *

أوليا چلبي..

رحالة برر غزو الأتراك لمصر بروايات أسطورية

رغم أن غزو العثمانيين لمصر عمل سياسي عسكري بحت له أسبابه العقلانية والواقعية المرتبطة بشبكة مصالح السّلطنة، إلا أنه لم يخلُ من الارتباط بقصص خيالية راحت تقدّم مبررات لهذا الفعل على شكل نبوءات وأعمال خارقة.

وظهور هكذا قصص خيالية ليس غريبًا عن الأحداث السياسية الكبرى في التاريخ العربي- الإسلامي وفي التاريخ العثماني، وعدا كونه تعبيرًا عن ثقافة لم تكن شبيهةً بعقلانية عصرنا الحالي، فهو أسلوب استُخدم لإضفاء هالة من القدسية على بعض الشخصيات التاريخية.

أسباب حقيقية

وقفت أسباب واقعية عدّة وراء إقدام السلطان سليم الأول على غزو مصر منها إيواء المماليك للأمراء العثمانيين الفارين في فترات النزاع على العرش العثماني، ما أثار غضب السلاطين في الآستانة وقلقهم من إمداد المماليك لهؤلاء الأمراء بجيوش لمحاربتهم، حسبما ذكر الدكتور أحمد فؤاد متولي في كتابه «الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له».

وشهدَتْ العلاقة بين العثمانيين والمماليك أيضًا توتراتعلى خلفية تصارعهما على النفوذ في مناطق الأناضول الجنوبية الشرقية والمناطق الواقعة شمال الشام، إذ سعى كلٌ منهما إلى تعيين أمير موالٍ له في الإمارات الواقعة في هذه المناطق.

لكن ما أغضب السلطان سليم أكثر كان تحالف المماليكالسُنّة مع الصفويين الشيعة في إيران ضد السلطنة، رغم هشاشته، إذ لم يخض الطرفان معًا معارك ضد العثمانيين، ربما بسبب التناقض بين

الدولتين المملوكية والصفوية وخشية المماليك من أن ينتصر الصفويون فيكون ذلك وبالًا عليهم، لا سيما أن الصفويين كانوا يعملون على نشر مذهبهم الشيعي بشتى الوسائل. وبحسب متولي في كتابه، ربما اتفق المماليك مع الفرس خشية أن يهاجمهم العثمانيون، فيهب الصفويون لنجدتهم.

على كل، قضى السلطان سليم على الخطر الصفوي، وبدأ يغير على الإمارات التابعة للمماليك في الأناضول ويستولي على بعضها، وينصب للحكم في بعضها الآخر مَن يشاء، فقد أراد أن يؤمّن مؤخرته قبل البدء في الصدام الكبير مع المماليك.

قبر الرسول

رغم ذلك، مُزج الغزو بجو أسطوري عبر حكايات أوردها الرحالة التركي أوليا چلبي في كتابه «سياحتنامه مصر» الذي ترجمه إلى العربية الدكتور الصفصافي أحمد القطوري بعنوان «الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش ١٠٨٢ – ١٨٩١/ ١٦٧٢ - ١٦٨٠ ».

من هذه الحكايات واحدة قال إنها جرت في أعقاب هزيمة الأمير سليم على يد جيش أبيه السلطان بايزيد في أدرنة، عام ١٥١١، عندما أعلن الأول عصيانه لوالده وتحرك للظفر بكرسي السلطنة. يروي چلبي، أن الأمير سليم انطلق متنكرًا في رحلة سياحية، فوصل إلى بغداد، وهناك التحق بحجاجها متجهًا إلى الكعبة، ثم التحق بحجاج مصر وذهب معهم لزيارة الحرم النبوي في المدينة المنورة.

وبحسب چلبي، تمسك سليم بالشباك النبوي وصاح صيحة قوية مزقت قلوب الناس قائلًا: «يا رسول الله إنك خلفت في الدنيا ما سُمي الناموس المحمدي فما هذا الناموس المحمدي الذي يجعلك تنام هكذا بين كفرة الجراكسة المصريين (كانت الحجاز خاضعة للمماليك وقتها)، وهل هذا يعد ناموسًا؟ ها أنا أعطيك عهدًا وميثاقًا إن يسّر الله لي ببركتك فتح مصر أن أجعل بلاد مصر كلها وقفًا عليك، وأبني بها قلاعًا، وأرسل كل سنة لأمتك الكساوى والصرة وسائر العطايا والهدايا».

قال هذا وتضرع وابتهل وبكى وأبكى كثيرين، ثم كرّر هذا التضرع والابتهال سبع مرات، وإذ بشخص متشح بملابس رثة يقول من تحت شباك الرسول: «يا سليم أنا كفيل لك وضامن، فاذهب إليها وقم بعملك كما تريد وإياك وظلم العباد والتعدي عليهم، وعليك بمراعاة علماء مصر»، ثم أشار بيده قائلًا ومكررًا لفظ «زُح... زُح».

وفي الوقت نفسه، ارتفع صوت من القبر الشريف يقول: «دَستور يا سليم، دَستور يا سليم»، فحمد سليم الله عند ذلك، ورافق حجاج مصر حتى وصلها بعد أربعين يومًا ونزل في تكية «ميمندي» في القرافة الكبرى في القاهرة.

ولما زار سليم أبا السعود الجارحي ومرزوق الكفافي، وكانا من علماء مصر، سلّم عليهما سلامًا حارًا، فردّ الجارحي عليه بقوله «عليك السلام يا صاحب رسول الله ويا حاكم الحرمين الشريفين وحاكم مصر، سلامتك يا سليم... زُح بالعجل إلى بلاد الروم». وكذا

أظهر الكفافي الكرامة وكشف عن الحال فقال بالتركي ما معناه «عجّل بالعودة، وتسلم عرش السلطنة، ثم أسرع في غزو بلاد العجم، وبعد هذا تعال إلينا حينما ندعوك، ولا تقم الآن بمصر».

نداء العلماء

تغيّرت الأمور الواقعية، واستطاع سليم تولي العرش بعد عزل والده وقتل إخوته. حينذاك، كما يروي چلبي، كان المصريون يُضطهدون على أيدي المماليك، ما اضطر جمعًا من كبار أولياء الله للحضور إلى ساحة أبي السعود الجارحي ومرزوق الكفافي وبث شكواهم إليهما.

بادر الشيخان لعقد مجلس من العلماء والصالحين للتشاور قائلين: «إنْ أعطيت مصر للمغاربة فإن بلادهم بعيدة عنها لا يستطيعون القدوم إليها سريعًا للتصرف فيها، وإن وقعت تحت أمر العجم (يقصدون الشيعة) فإن في عقيدتهم ومذهبهم لَشُبهة وريبًا، وإذا عادت إلى حكم الأكراد (يقصد الأيوبيين) فليس لدولتهم دوام ولا ثبات، فهيا إذًا نستعين بآل عثمان الذين هم مسلمون موحّدون، فضلًا عن تقديرهم للعلماء، وتفضيلهم الصلحاء، وتقريبهم المشايخ وأهل الشريعة السمحة وأصحاب السيف والعلم، مما جعلهم ينتصرون وينالون الظفر بالعدو أينما توجهوا وكيفما شاءوا».

عند ذلك، قام كلٌ من أبو السعود الجارحي ومرزوق الكفافي وصاحا قائلين: «يا سليم تعالَ... يا سليم تعالَ»، روى چلبي.

كان هذا يحدث والسلطان سليم جالس مع وزرائه في مشتى أماسية (مدينة تركية)، فإذ بالصدر الأعظم سنان باشا ويونس باشا يدخلان المجلس فجأة ويقولان: «يا سلطاننا قد سمعنا ثلاث مرات لفظ يا سليم تعالَ فما معنى هذا؟»، فقال السلطان «إننا ذهبنا إلى مصر وقد كشف الله الغطاء عن أبي السعود الجارحي ومرزوق الكفافي فقالا لي: «يا سليم اجلس على تخت أبيك، واحضر إلى مصر حينما ندعوك إليها، فما استمعتما الآن من الأصوات والنداءات ما هي إلا نداء هؤلاء المشايخ، عجلوا إذًا بالزحف إلى مصر».

ضريح أمير سلطان

لم تتوقف الروايات التي رواها چلبي عند هذا الحد. يروي أنه أثناء مسيره إلى مصر ذهب السلطان سليم لزيارة ضريح الولي أمير سلطان في بورصة (مدينة تركية)، وحينما دخلَ قال: «السلام عليكم يا أهل القبور»، فارتفع صوتٌ من قبره يقول «عليكم السلام يا صاحب السيف والقلم، ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين. هيّا تقلد سيف الغيرة والحماسة وتوجه على تلك الجهة».

وما كاد السلطان يسمع ذلك، حتى تناول السيف وعاد إلى قصره وبادر إلى دعوة العلماء ومفتي المذاهب الأربعة لديه، وطلب منهم الفتوى الشرعية بجواز الزحف إلى مصر وفتحها.

مقام النبي داوود

عندما وصل السلطان سليم إلى سهل مرج دابق، على مقربة من

كلس (تقع على الحدود السورية التركية)، أقام معسكره فيه، فتقدّم إليه درويش وقال له: «إذا أردت النصر والظفر بعدوّك فعليك أن تذهب إلى مقام داوود الذي هزم جالوت بإذن الله تعالى وأمره، فتسند ظهرك إليه قبل مجيء (السلطان المملوكي قانصوه) الغوري، وترى حينئذٍ كيف يتجلى الإله عليك بالنصر المبين، لأن ذلك المكان مبارك ومظهر من المظاهر الإلهية».

قال الدرويش هذا ثم غاب بغتة كما ظهر بغتة، ولا يتضح من كتاب چلبي إذا ما كان السلطان قام بذلك، ولكننا نعرف أنه انتصر على المماليك في معركة مرج دابق.

ابن عربي في المنام

حكاية غريبة رواها چلبي محدداً زمانها بأنه عقب استيلاء القوات العثمانية على الشام، بعد الانتصار على المماليك في موقعة مرج دابق عام ١٥١٦، إذ اتجه مرافق سليم العالم الشهير أحمد بن سليمان بن كمال باشا للتنقيب في الكتب التي وقعت تحت يديه، فوجد رسالة للصوفي محيي الدين بن عربي فيها عبارة «إذ جاء السين ودخل الشين ظهر مرقد الميم»

من هذه العبارة استخرج كمال أن «السين» إشارة إلى سليم، و«دخل الشين» يدل على أن سليم يدخل الشام، و«ظهر مرقد الميم» تعني أن قبر محيي الدين هو الذي سيظهر، بيد أن سليم لم يؤمن بهذه الرموز، وقال: «هيّا بنا نركب توًا ونذهب لزيارة محيي

الدين ونُظهر قبره للعيان». لكنه لم يصل للقبر الذي كان مكانه مجهولًا حتى لأهل الشام أنفسهم.

تألم سليم لذلك، فجاءه ابن عربي في منامه يقول له: «يا سليم! كنت منتظرًا قدومَك إلى الشام فمرحبًا بك يا سليم! أبشر قد يسّر الله لك غزو مصر وفتحها، فعليك أن تركب غدًا صهوة جواد أسود من إسطبلك العامر، فهو الذي يأتي بك ويرشدك إلى قبري، ثم تبادر إلى نقلي وإنقاذي من أرض المذلة والمهانة، وتبنى لي ضريحًا وتربة عظيمة في الصالحية، وتبني بجانبها جامعًا ومدرسة.. وبعد ذلك كله تنصرف لمهمتك التي جئت لأجلها، فالله مؤيدك وناصرك في فتح مصر».

استيقظ سليم خان من نومه وبادر إلى طلب الحصان الأسود، فقيل له ليس هنالك حصان بهذا الوصف، ولكنه ألحّ في طلبه هذا وأصرّ حتى وجدوا له بغلة نحيفة جرباء هزيلة ينطبق عليها الوصف، فاعتنوا بها حتى جعلوها جوادًا أصيلًا مسرّجًا بسرج يليق بركوب السلطان، فركبها سليم ولجامها على غاربها لتذهب كما تريد.

توجهت الدابة نحو الصالحية وصعدت كومة من الزبل والأوساخ ووقفت عليها، وأخذت تحفر في الأرض بحوافرها بكل لهفة وشدة، حتى ظهرت صخرة مربعة الشكل عظيمة عليها عبارة منقوشة بخط كوفي جميل «هذا قبر محيي الدين». فأمر السلطان سليم بإزالة الأقذار وتطهير المكان، ثم شرع في بناء ما طلبه منه ابن عربي.

وبحسب الرحالة التركي، فالظاهر أن القبر دُفن في الزبل وطُمر لأن الناس قديمًا ما عرفوا قيمة كتب الصوفية وما فهموا مزاياها حينذاك فكفّروه، واتخذوا قبره الشريف مزبلة وكوموا الأقذار والأتربة عليه حتى ضاعت معالمه.

علم الجفر

أما أغرب الروايات المرافقة لغزو السلطان سليم لمصر، فهي تلك التي سردها الرحالة التركي أثناء مكوث سليم في الشام. يروي أنه انشغل بعلم «الجفر» الذي يبحث في معرفة الغيب والمستقبل اعتمادًا على دلالات الحروف، وذات يوم سأل الشيخ ناصر الطرسوسي أحد مَن لديهم إلمام بهذا العلم: «هل أكون يومًا من الأيام من الذين يتيسر لهم فتح مصر أو أموت من جراء منافسة المنافسين وغيرتهم الممقوتة؟»، فأجاب الشيخ «بشرى لك يا مولاي إن سيدنا عليًا قد شهد لك وصرح في حضرة الرسول بأن آل عثمان سيمتلكون مصر، حيث وردَ في الأثر «قال سيدنا علي كرم الله وجهه لا بُدّ أن سليم آل عثمان يملك الروم والعجم ثم يملك جزيرة العرب، والغرض من جزيرة العرب هي جزيرة مصر لأن طوطيس من ملك القبابطة حينما أجرى نهر النيل إلى بحر السويس صارت مصر جزيرة وأطلق عليها اسم جزيرة مصر».

وقال عالم آخر: يا سليم، إن الله أظهر في القرآن الكريم أنك فاتح مصر، حيث استخرجه الإمام علي فأخبر به الحسين، فنقله زين العابدين، فنقله إلى السري السقطي، ومنه روى الجنيد البغدادي، لأن

كل حرف من حروف القرآن إشارة ورمز إلى المستقبل وما سيأتي به من الأحداث حتى يوم القيامة، والآية التي تدل على ذلك «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون».

وشرح العالم، أن لفظ «ولقد» تساوي ١٤٠، واسم سليم ١٤٠فيكون المراد من «ولقد» هو «سليم»، ولفظ «ذكر» يساوي ٩٢٠، و»من بعد الذكر» معناها بعد ٩٢٠، ما يعني أنك ستكون أنت فاتح مصر بعد ٩٢٠ عامًا، أما «الأرض يرثها» فيقصد بها مصر لأنها جاءت معروفة بالألف واللام، وبدون الألف واللام فإنها تعني مطلق الأرض، و «عبادي الصالحون» يعني أن «الله سبحانه وتعالى قد اعتبرك وعدك من عباده الصالحين الوارثين لأرض مصر، فهذه البشرى كافية لك فاذهب إلى قصدك والله معينك وظهيرك». .

*****

أبرام السرياني ويوحنا الخامس عشر..

الموت ثمنًا لمواجهة التسري عند الأقباط

عام ٩٧٩، دفع البطريرك أبرام السرياني حياته ثمنًا لوقوفه ضد تسرّي الأقباط، باعتبار أن ذلك يخالف الشريعة المسيحية، فقد قُتل مسمومًا على يد أحد الوجهاء الأقباط المتسريين.

والتسري يعني أن يتخذ السيد أمته (جاريته) للجماع ولا يجامعها غيره، وهو ما تعتبره المسيحية «زنا»، لأنها لا تعترف بتعدد

الزوجات، وأمرت بأن يكون للمسيحي زوجة واحدة.

ويروي القس منسى يوحنا في كتابه «تاريخ الكنيسة القبطية»، أن أبرام السرياني تولى الكرسي البابوي عام ٩٧٥، في عهد خلافة المعز لدين الله الفاطمي، فحارب عادة التسري التي كانت منتشرة بين الأقباط انتشارًا هائلًا لا سيما بين الموظفين منهم في المصالح الحكومية، والذين كانوا يتمتعون بالرفاهية في ظل الدولة الفاطمية، فتقلدوا المناصب الرفيعة وامتلكوا كلمة نافذة في الدواوين، وكثر تهافتهم على السراري .

وبحسب يوحنا، «كان الواحد منهم يجلب إلى بيته عددًا منهن بدون عقد شرعي مما ينافي روح الدين المسيحي، ولم يجدوا مَن يعارضهم أو ينكر هذه العادة لاهتمام البطاركة بجمع الغرامات المفروضة عليهم».

ولما جلس أبرام على كرسي البطريركية أنكر عليهم ذلك، وطلب منهم أن يقلعوا عن هذه الممارسة، لكنه «لم يلقَ منهم سوى المقاومة وعدم الرضوخ، بعدما تأصلت هذه العادة فيهم واعتادوا عليها وألفوها، ومضى على أتباعهم إياها زمن طويل، فلم يسهل عليهم التنازل عنها مرة واحدة».

وكان أشد المقاومين لمساعيه رجلٌ مشهورٌ بالغنى ونفوذ الكلمة يدعى أبا السرور، وكان من الحاصلين على المناصب العالية في الحكومة، وكان لديه عدة سراري وحظيات. اعترض البطريرك على

سلوكياته وعنفه لفظيًا كثيرًا، ولما لم يرتدع أصدر بحقه حرمانًا كنسيًا، فما كان منه إلا أن دس له السم وقتله، وكان قد مضى على تسلمه منصبه أقل من أربع سنوات، حسبما ذكر يوحنا.

من الأمويين حتى محمد علي

وتذكر كريمة كمال في كتابها «طلاق الأقباط» أن ظاهرة تعدد الزوجات والتسري بالسراري أو الجواري تفشت في عهد عبد الملك بن مروان (٦٨٥ - ٧٠٥)، ولم يقتصر الأمر على المسلمين وإنما امتد أيضًا إلى الأقباط المسيحيين، إذ لم يمض وقت كبير على اختلاطهم بالمسلمين حتى راحوا يمارسون هذه العادة.

ومصطلح «تعدد الزوجات» الذي وردَ في كتب التاريخ لم يُقصد بها زواج المسيحي بأكثر من زوجة في وقت واحد، ولكن قُصد به التسري واقتناء الجواري بغرض المتعة، وهذا ما ترفضه الشريعة المسيحية.

بيد أن تسري الأقباط كان قاصرًا على الأغنياء منهم فقط، باعتبار أن مَن يملك المال هو فقط مَن يستطيع اقتناء الجواري، وقد واجهته الكنيسة على مدار تاريخها واعتبرته من الخطايا.

وفي عهد محمد علي باشا، لاحظ المستشرق الإنجليزي إدوارد لين في كتابه «عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم» أن الأقباط عرفوا تعدد الزوجات، وكان ذلك دافعًا للبطريرك بطرس الجاولي (١٨٠٩ – ١٨٥٢) ليندد بشدة بهذا الأمر ويحذّر رعيته من الخروج

عن الشريعة المسيحية.

واختلفت طريقة مواجهة الكنيسة لتسري أتباعها بين فترة وأخرى، ففي عهد الدولة الأيوبية، في فترة البطريرك كيرلس الثالث المعروف بـ «ابن لقلق»، والذي تولى الكرسي البابوي سنة ١٢٣٥ في عهد الملك الكامل ناصر الدين محمد بن أيوب، اجتمع عدد من الأساقفة واتخذوا عدة قرارات إصلاحية وقام البطريرك كيرلس بالتوقيع عليها.

وكان من بين هذه القرارات الامتناع عن سيامة (تقلدمناصب كنسية) أبناء «الثواني» أي السراري، الذين يتقدمون إلى رتبة الكهنوت، حسبما روى كامل صالح نخلة في الجزء الرابع من «سلسلة تاريخ البابوات. بطاركة الكرسي الإسكندري. الحلقة الأولى. البابا كيرلس الثالث»

مرقس الخامس... العزل ثمنًا لمعارضة التسري

غير أن البطريرك مرقس الخامس الذي تولى كرسي البطريركية في العصر العثماني، وتحديدًا سنة ١٦٠٢، كان على وشك أن يدفع منصبه الديني ثمنًا لمعارضته تسري الأقباط .

ويروي كامل صالح في كتابه، أن أعيان نصارى الريدانية (إحدى قرى الدقهلية بدلتا مصر) طلبوا منه أن يأذن لهم بتعدد الزوجات فوبخهم على هذه الجسارة، فتحزبوا ضده وشكوه للوالي جعفر باشا، في عهد السلطان محمد بن مراد، طالبين عزله، فقبض عليه

الوالي وحبسه في برج الإسكندرية وأذن لهم برسامة شخص آخر، فأغروا راهبًا وكرسوه بطريركًا فأذن لهم بالطلاق وتعدد الزوجات.

لكن لم تمض مدة حتى ثار مسيحيو القاهرة والصعيد ورفضوا البطريرك الجديد وأهانوه، بل وقطعوا ذيل حماره (إشارة إلى الإمعان في الإهانة)، وتوجه وفد من وجهاء الأقباط في القاهرة إلى الوالي، والتمسوا عفوه عن البطريرك مرقس بداعي أن الذي طلبه أهل الريدانية كان لغرض في النفس ومخالف للإنجيل، فعفا الوالي عنه وأعاده إلى كرسيه.

ورغم ذلك، ظل أهل الحزب الأول مصرين على عنادهم، متمسكين ببطريركية الراهب إلى أن ضعف نفوذه وتفرق أنصاره عنه مع الزمن.

يوحنا الخامس عشر نفس المصير لنفس السبب

ولم يكن أبرام البطريرك الوحيد الذي مات مسمومًا بسبب معارضته تسري الأقباط. فبعد ٦٤٤ عامًا من وفاته، لقي البطريرك يوحنا الخامس عشر الذي تولى الكرسي البابوي عام ١٦١٣، في عهد سلطنة عثمان بن محمد، نفس المصير ولنفس السبب أيضًا .

ويروي منسى يوحنا في كتابه أنه بينما كان البطريرك يوحنا يطوف بين رعيته في أبنوب في صعيد مصر وجد وجيهًا عنده محظية، فنصحه وأرشده وأكد له أنه إذا لم يرجع عن ذلك فسوف يحرمه، فاغتاظ الرجل ودسّ له السم في الطعام، فلما شعر البطريرك بدنو

أجله استقل مركبًا للعودة إلى القاهرة فعاجلته المنية وهو في النيل، سنة ١٦٢٣.

محاربة التسري في كنيسة الحبشة

لم تكتف الكنيسة المصرية بمجابهة التسري لدى أتباعها في مصر فقط، وإنما أيضًا خارجها وتحديدًا في الحبشة عندما كانت الكنيسة الحبشية تابعة لها.

فقد أرسل البطريرك كيرلس الثاني الذي تولى الكرسي البابوي سنة ١٠٧٨ في عهد الخليفة المستنصر بالله المطران ساويرس ليكون أسقفًا على الكنيسة الحبشية، فشرع في إصلاحها ومقاومة بعض العادات الشائعة هناك.

وبحسب يوحنا، كان أمراء الحبشة يأخذون جملة من الجاريات فوق الزوجة الشرعية، فأراد المطران أن يستأصل أصل هذه العادة، ولكن مساعيه لم تأتِ بفائدة تُذكر لأنهم كانوا يدّعون «أنهم باقون على شريعة موسى في أمر تعدُّد الزوجات، واعتقدوا أن ذلك ليس محرمًا إلا على القسوس والشمامسة فقط».

غض النظر وعدم المعارضة

ووُجد من بين البطاركة مَن غض نظره ولم يعارض المسيحيين في تلك العادة، مثل البطريرك فيلوثاؤس الذي تولى الكرسي البطريركي سنة ٩٧٩ خلفًا للبطريرك أبرام الذي مات مسمومًا بسبب معارضته لتسري الأقباط، إذ آثر الدعة والسلامة.

وبحسب يوحنا، لم يعارض هذا البطريرك عادة التسري التي كان يستقبحها سلفه إلا أنه كان مبغوضًا، «فلم يكن يهتم بغير صالح شخصه، وأرخى العنان للملاذ الجسدية ومحبة الأكل والشرب وتدخير (ادخار) المال ولذلك لم يكن أحد يرتقي إلى درجة الأسقفية في عهده إلا بعد دفع جعل (مبلغ مالي) عظيم».

*****

زبيدة محمد البواب..

مصرية أسرت قلب قائد الحملة الفرنسية

كان جاك فرانسوا مينو، القائد الثالث للحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١) متحمسًا لقضية الاستعمار الفرنسي ولاندماج مصر بفرنسا. وللتقرّب من المصريين، تزوّج من المصرية زبيدة، ابنة محمد البواب، بعد أن أشهر إسلامه.

ويذكر عبد الرحمن الرافعي في الجزء الثاني من كتاب «تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر»، أن مينو (١٧٥٠ - ١٨١٠) أراد التقرب من الشعب المصري إلى درجة الاندماج فيه، فاعتزم الزواج من سيدة مصرية شريفة، واقتضى ذلك اعتناقه الإسلام، في وقت كانت تمر فيه الحملة الفرنسية بظروف حرجة بعد رحيل نابليون بونابرت إلى فرنسا عام ١٧٩٩، ومقتل القائد الثاني للحملة جان بابتيست كليبر (١٧٥٣ - ١٨٠٠).

زواج من أجل «الصالح العام»

أتى زواج الجنرال الفرنسي في إطار إيمانه بفكرة ترسيخ قدم بلاده في مصر. ذكر كريستوفر هيرولد في كتابه «بونابرت في مصر» أنه كان من أشد القادة الفرنسيين في مصر تحمسًا لقضية الاستعمار والاندماج، وإن كان آخرون قد شاركوه هذه الحماسة، إلا أن أحدًا منهم لم يتصرف بمثل ما تصرف به. فبونابرت أعلن للمصريين من قبل أنه مسلم بقلبه ولقح إلى أنه سيعتنق الإسلام، أو على الأقل هذا ما أشيع، أما مينو فقد اعتنقه فعلًا.

ولذلك، هنأ بونابرت مينو على «تضحيته» في سبيل القضية الوطنية. بعد زواجه، كتب مينو للجنرال ديجا الذي عينه بونابرت حاكمًا على القاهرة يقول: «يجب أن أحيطك علمًا يا عزيزي الجنرال بأنني اتخذت لي زوجة، وأنني أعتقد أن هذا الإجراء يخدم الصالح العام». أما الجنرال مارمون الذي أنبأه مينو بهذا الإجراء بنفس اللهجة فقد رد عليه مهنئًا، وأضاف، متخابثًا في أغلب الظن: «أنت محق في قولك عن أن زواجك سيدهش الكثيرين، أما أنا يا عزيزي الجنرال، فاعتبره علامة على إخلاصك العظيم لمصالح الجيش الفرنسي».

وبعد أسبوع كتب إليه مارمون يسأله: «إني تواق لأن أعرف هل مدام مينو جميلة، وهل في نيتك في القريب العاجل أن تتحفها برفيقات لها جريًا على أهل البلاد؟». فأجاب مينو: «يا عزيزي الجنرال، إن زوجتي طويلة القامة، مبسوطة الجسم، حسنة الصورة

من جميع الوجوه، فلها عينان رائعتان، ولون بشرتها هو اللون المصري المألوف، وشعرها طويل فاحم، وهي لطيفة الطبع، وجدتها تتقبل كثيرًا من العادات الفرنسية بنفور أقل مما توقعت.. وأنا لم ألح عليها بعد في الخروج سافرة على الرجال، فهذا سيأتي شيئًا فشيئًا... ولن أنتفع بما أباحه النبي من الزواج بأربع نساء خلاف السراري، فإن في النساء المسلمات شهوة حارة عنيفة، وفي زوجة واحدة أكثر من الكفاية لي»، روى هيرولد.

بذاءات الجنود

غير أن هذه المباركات الرسمية للزواج لم تخل دون تعليقات شديدة البذاءة حول الموضوع داخل الجيش الفرنسي. فالجنرال جوزيف ماري مواريه ذكر في مذكراته الواردة في كتاب «مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر»، أن لقب «عبد الله» الذي حمله مينو خلق بين الجنود الفرنسيين انطباعات ليست في صالحه، إذ اصطدم ذلك بجذوة أفكارهم الدينية التي نهلوا تعاليمها من تربيتهم الأولى، وثارت تساؤلات بينهم حول ما إذا كان هذا الرجل الذي ارتد عن دينه كفوءًا لقيادتهم.

ويبدو أن مينو ظنّ أن إسلامه وزواجه من مصرية مسلمة سيمهد الطريق لتقبل المصريين لإجراءاته. وبحسب هيرولد، «اعتبر مصر قطعة من فرنسا، وأعلنها كذلك رسميًا، وراح يغير ملامح البلاد ليصوغها على صورة فرنسا، فأمر بهدم أحياء كاملة في القاهرة لتتسع لإنشاء شوارع فسيحة، وانتزع جباية الضرائب من يد

الأقباط وفرض ضريبة واحدة على الأرض، وألغى الرسوم الإقطاعية، وغيّر قوانين المواريث الإسلامية، وألغى القانون الجنائي الإسلامي وأنشأ محاكم جنائية تحت إدارة الفرنسيين، وأمر بقيد المواليد والوفيات إجباريًا، وأنشأ أول جريدة تُطبع باللغة العربية».

غير أن الأهالي رأوا أن هذه الإجراءات ليست سوى محاولات يقترفها مسلم كاذب لاقتلاع جميع نظمهم وتقاليدهم، بل واعتبروه دجالًا، كل ما يأبه له هو جعل مصر إقليمًا فرنسيًا، وهي رغبة لم يشاطروه إيّاها.

مصاهرة عائلة «شريفة»

لم يكن مينو يقصد اختيار سيدة بالذات، بل كان بحسب الرافعي يرمي إلى مصاهرة عائلة تتصل بالسلالة النبوية، فرغب في البدء بمصاهرة الشيخ الجارم، عميد أسرة الجارم العريقة في الشرف والعلم، ولكن يبدو أن الشيخ استعجل سد الطريق أمام الجنرال، فلم يكد يسمع برغبته حتى بادر إلى تزويج كريمتيه إلى اثنين من أهله، ليتخلص من هذه المصاهرة.

ودفع هذا الرفض مينو إلى طلب الزواج من زبيدة، ابنة محمد البواب أحد أعيان رشيد، وكانت مطلقة بعد زواج سابق من شخص يدعى سليم آغا نعمة الله، فقبل أبوها وقبلت هي، وتم عقد الزواج في وثيقة شرعية مؤرخة بتاريخ ٢٥ رمضان سنة ١٢١٣، وتضمنت

اعتناقه للإسلام، وتَسمّى فيها باسم «عبد الله باشا مينو» .

رؤية مختلفة

في مقابل هذه الروايات، يتبنى مؤرخون آخرون وجهة نظر مختلفة، فيقولون إن زواج مينو من زبيدة لم تقف وراءه دوافع سياسية بحتة، لأن الحملة الفرنسية على مصر كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة وقت زواجه. فبعد رحيل بونابرت إلى فرنسا اتجه كليبر لمفاوضة العثمانيين على الرحيل وعقد معهم اتفاقية العريش الأولى للجلاء عن مصر في يناير ١٨٠٠، إلا أن الإنجليز تدخلوا لإبطالها. كما قام المصريون بثورتين كبيرتين ما دفع الفرنسيين إلى التفكير بالرحيل عن مصر.

وبالتالي، لا يعدو زواج مينو كونه قصة زواج عادي لا يحمل أبعادًا سياسية، بل على العكس أتى هذا الزواج على مينو وعلى زوجته بسخط كبير من المصريين وليس العكس، فقد اعتبرها البعض خائنة لأنها تزوجت من غازٍ لبلادهم.

تضارب آراء

وتضاربت الشهادات عن زبيدة، «فمن قائل إنها شابة مغربية، وإن مفاتنها أيقظت شهوات مينو المكتهل حتى عبثت بعقله، ومن قائل إنه لم يرها قط قبل العُرس، ثم تبين أنها لم تكن على ما زُين له من شبابها وجمالها وثرائها»، بحسب هيرولد.

أما مينو نفسه فقد أذاع على الملأ أنها سليلة أسرة من الأشراف،

لأن أباها وأمها متحدران من سلالة الرسول. وبحسب الرافعي، رُزق مينو من زوجته في شهر يناير ١٨٠١ ولذا أسماه سليمان مراد جاك مينو.

وأقامت زبيدة مع زوجها في رشيد عندما كان حاكمًا للمدينة، وبقيت فيها بعد أن تولى القيادة العامة للجيش الفرنسي، إلى أن احتلها الأتراك والإنجليز فخرجت بصحبة أخيها من أمها علي الحمامي، وانتقل بها إلى الرحمانية، ولمّا احتلها الحلفاء قدم بها إلى القاهرة فدخلاها ونزلا بدار القائد العام، بيت الألفي بك بالأزبكية، ثم انتقلا إلى القلعة ليكونا بمأمن من الاضطرابات، وكان مينو وقتئذ بالإسكندرية.

وبقيت زبيدة وابنها وحاشيتها في القاهرة إلى أن وقّع الجنرال الفرنسي بليار الذي كان حاكمًا لهذه المدينة على شروط التسليم وتم جلاء الفرنسيين، فأذن لها قائد الجيش الإنجليزي الجنرال جون هيلي هتشنسون بالسفر إلى الإسكندرية لتلحق بزوجها، على أن مينو طلب الإذن لها بالسفر إلى فرنسا فرحلت إليها على إحدى السفن التي أقلت جيش الجنرال بليار.

ولكن خاتمة قصة مينو وزبيدة لم تكن سعيدة. يروي الرافعي أن الجنرال الفرنسي أساء معاملة زوجته ثم هجرها عندما انتقل إلى تورينو بإيطاليا، واستبدلها براقصات اتخذهن خليلات، وتركها تعاني مشقة العيش إلى أن توفيت.

«دورفيني» و«سولت»..

صراع القناصل على تهريب آثار مصر برضا الباشا

لم يكن برناردينو دروفيني ممثلًا لفرنسا في مصر فحسب، بل أيضًا موضع ثقة محمد علي باشا وأمين سره، وهذا ما منحه وضعية استثنائية أفادته كثيرًا في مجال التنقيب عن الآثار المصرية والاتجار بها.

وبحسب ما ذكره محسن محمد في كتابه «سرقة مُلك مصر»، فإن دروفيني إيطالي الأصل ولد سنة ١٧٧٦، وحاز الجنسية الفرنسية وشارك في حملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨، وعمل قنصلًا عامًا لفرنسا في مصر خلال فترتين: الأولى بين عامي ١٨٠٤ و١٨١٤، والثانية لتسع سنوات بدءًا من عام ١٨٢٠، إذ فصلته الحكومة ثم أعادته إلى العمل لأنه كان صديقًا لوالي مصر .

وبدأت سرقة الآثار المصرية عبر القناصل بعد أن صدر كتاب «وصف مصر» وتضمن رسومات لشخصيات وآثار مصرية بريشة العالم والرسام الفرنسي دومينيك فيفان، ما جذب إليها اللصوص في عصر محمد علي.

دروفيني... ثلاث مجموعات أثرية

استغل القنصل الفرنسي صداقته مع الباشا في تكوين ثروات هائلة من تجارة الآثار. يذكر الدكتور أشرف محمد حسن علي في كتابه «الآثار المصرية المستباحة... الإدارة المصرية والآثار في القرن

التاسع عشر»، أن دروفيني حصل على فرمانات تنقيب تشمل مساحات شاسعة، واستخدم عددًا كبيرًا من العمال، ووفّر الحماية الكافية لهم، إلى درجة أنه كان يحصل لهم على استثناءات من القيام بأعمال السخرة والتجنيد الإجباري.

في ذلك الوقت، لم تكن الآثار تمثل أهمية لوالي مصر في ذلك الوقت، وبالتالي لم يمانع في حصول القناصل عليها مقابل مساعدتهم في تنفيذ إصلاحات اقتصادية كان يسعى إليها بمساعدة الدول الأوروبية، خاصةً فرنسا.

جمع دروفيني مجموعة كبيرة من أوراق البردى، وعرضها على فرنسا فرفضت شراءها، فعرضها على ملك سردينيا (جزيرة إيطالية)الذي دفع ثمنها ٤٠٠ ألف ليرة إيطالية وقدمها إلى متحف تورينو، حسب ما ذكر محسن محمد .

ووقف رجال الدين الكاثوليك وراء الرفض الفرنسي لمجموعة دروفيني، وهو ما فسره أشرف محمد حسن علي في كتابه بأن تلك الآثار «تثبت أن مصر كانت موجودة قبل عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد، وهي السنة التي بدأ فيها الخلق تبعًا لحسابات أجراها في القرن السابع عشر جيمس أسشار كبير الأساقفة واستخرجها من نصوص الكتاب المقدس، وأصبحت هذه المسألة عقيدة لاهوتية ثابتة، ما جعل السلطات الفرنسية تحجم عن شراء آثار قد تثير جدلًا نتيجة تعارضها مع تعاليم الكنيسة».

على كل، تمكن دروفيني من تكوين مجموعة أثرية ثانية كانت أقل ثراءً من الأولى، ضمت خمسة آلاف قطعة تحتوي على مجوهرات وتماثيل وخمسين بردية وخمسمئة جعران (حشرة تشبه الخنفساء) وثماني لوحات جنائزية اشتراها الفرنسيون بمبلغ ٢٥٠ ألف فرنك فرنسي، وعرضت جميعها في متحف اللوفر.

بعد ذلك، نجح دروفيني في تكوين مجموعة ثالثة وأخيرة كانت أقل ثراءً من المجموعتين الأوليين، وذكر حسن أنها بيعت إلى متحف برلين عام ١٨٣٦ بمبلغ ٢٠ ألف فرنك فرنسي.

هنري سولت.. مهمة أثرية في ثوب دبلوماسي

لم يكن يداني دروفيني أحد سوى الإنجليزي هنري سولت الذي عُين قنصلًا لبريطانيا في مصر عام ١٨١٥، وكُلّف الرجل بجمع أكبر عدد ممكن من الآثار للمتحف البريطاني، لذا دخل في حرب ضد نظيره الفرنسي شهدت تقديم رشوة لموظفي الحكومة، وعلاوة للعمال، وتحريض الأهالي للاستيلاء على الآثار التي عثر عليها المنافسون وشرائها بأثمان كبيرة .

وفي عام ١٨١٨، أرسل سولت مجموعة ضخمة إلى المتحف البريطاني ولكن الأوصياء أبخسوه الثمن واشتروها بمبلغ ٢٠٠٠ جنيه استرليني، وهو يقل عن تكاليف الحفر والنقل، ورفضوا تابوت سيتي الأول فاشتراه السير جون سلون الذي دفع ٢٠٠٠ جنيه ثمنًا له ووضعه في متحفه المعروف باسمه في لندن، حسبما روى محسن

واشترى مجموعة سولت الثانية التي حصل عليها بين عامي ١٨١٩ و١٨٢٤ ملك فرنسا لويس الثامن عشر بمبلغ ١٠ آلاف جنيه، ووضعت في متحف اللوفر.

وحين توفي سولت بمرض معوي في أكتوبر عام ١٨٢٧، لم يكن قد استوفى بعد ثمن مجموعته الأثرية التي باعها للفرنسيين، وإن كان قد نجح قبل وفاته بثلاثة أسابيع فقط في تكوين مجموعة أثرية ثالثة كانت أكبر من الأولى، ودون الثانية حجمًا. وشُحنت هذه المجموعة إلى لندن، وبيعت في مزاد علني كبير عام ١٨٣٥. ضم المزاد ١٢٧٠ قطعة شملت عملات وميداليات وتماثيل خشبية وحجرية وبرونزية ولفائف من مخطوطات البردى والجعارين والحلي الذهبية والمومياوات، وحققت نحو ٧١٦٨ جنيهًا.

هذا التنافس الشديد على آثار مصر يرجع إلى معايير ارتبطت بتلك الفترة الزمنية. أولها «أخلاقية»، إذ كانت الدولتان تريان أن هذه الآثار مهملة في وطنها، وأن الحصول عليها ووضعها في متاحفهما يحقق لها الرعاية المفتقدة باعتبارها إرثًا للإنسانية كلها. والمعيار الثاني هو السباق الحضاري في إطار استعماري، إذ أصبح الحصول على الآثار المصرية أحد مجالات التسابق بين الدول الغربية منذ فك شيفرة حجر رشيد وبداية الولع بالآثار المصرية. وتمثل المعيار الثالث في عدم وجود قوانين في تلك الفترة تجرّم البحث عن الآثار والاتجار بها، ما ساعد على التنقيب عنها بحرية تامة.

ورغم أن هؤلاء القناصل كانوا يبحثون في البداية عن الآثار لخدمة

متاحف بلدانهم، فإنهم تحولوا إلى تجار يبيعون ما يعثرون عليه لمتاحف بلدان أخرى منافسة لبلدانهم رغبةً في الثراء السريع.

قناصل فرنسيون وبريطانيون آخرون

لم يكن دروفيني وسولت القنصلين الوحيدين الممثلين لبلديهما ممن عملوا بتجارة الآثار. بيافوان ودوران تعاقبا على رأس القنصلية الفرنسية خلال فترة عزل دروفيني عن هذا المنصب بين عامي ١٨١٤ و١٨٢٠ وانخرطا في الطريق نفسها حتى أن دوران كوّن مجموعة أثرية ضخمة بيعت إلى متحف اللوفر، بحسب ما ذكر أشرف محمد حسن علي.

شاركهما بعد ذلك سباتييه الذي كان يطلب بعضًا من الآثار التي تمتلكها الإدارة المصرية. كذلك أمدّ القنصل الفرنسي ديلابورت متحف اللوفر عام ١٨٦٧ بعدد من التماثيل الفرعونية ولم يفتأ جان فرانسوا ميمو، منذ توليه منصبه سنة ١٨٢٩، أن يعلن في كل مناسبة عن رغبته في نقل ما يمكن جمعه من الآثار المصرية لفرنسا، وكان جشع هذا القنصل أحد أسباب إصدار محمد علي قانونًا مصريًا لحماية الآثار عام ١٨٣٥ نكاية به.

الأمر نفسه انطبق على القناصل الإنجليز. فالقنصل جون باركر خلف سولت وحصل عام ١٨٣٠ على تصريح من محمد علي للبحث عن الآثار أسفل المحال القديمة حتى منطقة الشلالات، وكذلك باتريك كامبل من ١٨٣٣ حتى ١٨٣٩.

أنستازي... التعاون مع وزير الوالي

ولم يقتصر الأمر على قناصل بريطانيا وفرنسا. التاجر الأرميني جيوفاني أنستازي جاء من سوريا واستقر في الإسكندرية وعمل قنصلًا للسويد والنرويج طوال ٢٩ عامًا، وحظي بثقة محمد علي ووزيره بوغوص بك يوسفيان، ناظر الخارجية والتجارة، ما شجعه على الانغماس في تجارة الآثار.

جمع أنستازي كمية كبيرة من آثار سقارة والأقصر، وباع صفقة ضخمة للحكومة الهولندية عام ١٨٢٨ ومجموعتين للمتحف البريطاني عام ١٨٣٩ ومجموعة ثالثة لفرنسا سنة ١٨٥٧.

ولم ينسَ التاجر الأرميني أن يردّ بعض الجميل للبلد الذي يمثله، فأهدى تابوتًا ضخمًا من الجرانيت لمتحف ستوكهولم. والغريب أنه أوصى بالثروة التي جمعها من التجارة في آثار مصر للأعمال الخيرية في السويد، بينما أوصى بدفنه في مدينة الإسكندرية، روى علي.

توسكانيا وسردينيا وبلجيكا

كذلك عُرف عن روزيتي قنصل توسكانا (إقليم في إيطاليا) اهتمامه بالتنقيب عن الآثار وتهريبها إلى الخارج. ذكر أشرف محمد حسن علي في كتابه، أنه أهدى تابوتًا حجريًا إلى المتحف الإمبراطوري في فيينا، وآخر لفراكبير هامبليون أثناء رحلته إلى مصر بين عامي ١٨٢٨ و١٨٣٠، ولكن العالم الفرنسي صرف النظر عن

المسألة برمتها، بعد أن اكتشف أن تكاليف النقل باهظة فيما لم يكن التابوت ذا قيمة أثرية كبيرة .

ولم يخرج قنصل سردينيا كارل بيدمونتي عن القائمة. ففي عام ١٨٢٩، منحه محمد علي تصاريح بالتنقيب في أماكن عديدة مع إمداده بالعمال، على أن يدفع هو أجورهم .

وظل مصطفى آغا عياط المصري خمسين عامًا قنصلًا فخريًا في الأقصر لبريطانيا وبلجيكا وروسيا. وروى محسن محمد، أن هذا القنصل استغل الحصانة الدبلوماسية في تهريب الآثار، حتى أن حكومة بلجيكا استنكرت عمليات تهريبه المستمرة لأوراق البردى، فعزلته عن تمثيلها.

ألمانيا وأمريكا

ويكاد يكون الاهتمام بالآثار جامعًا مشتركًا بين القناصل الألمان العاملين في مصر خلال القرن التاسع عشر. فذكر أشرف محمد حسن علي، أن القنصل العام البروسي فون بنز أهدى إلى متحف برلين عام ١٨٥٥ تمثالًا للملك أمنحوتب الثالث، وأهدى البارون لبتروث إلى المتحف نفسه عام ١٨٦٢ تابوتًا مرمريًا من عهد الأسرة الثامنة عشر، وأضاف ترافيرس كمية ضخمة من أوراق البردي المستخرجة من تلال منطقة الفيوم عام ١٨٧٧.

وكان لقناصل الولايات المتحدة نصيب من الكعكة. ومنهم جورج غليدون الذي عين قنصلًا لأمريكا عام ١٨٣٢ وقدم للمعهد الوطني

في واشنطن بعضًا من قطع الآثار المصرية رغم أنه كان إنكليزي الجنسية، وانتزع القنصل الأمريكي ألبرت فارمان (١٨٧٦- ١٨٨١) موافقة الخديوي إسماعيل على نقل مسلة تحتمس الثالث إلى نيويورك.

قوانين وتشريعات

دفعت هجمات القناصلة على الآثار عددًا من علماء المصريات، وعلى رأسهم شامبليون، إلى الضغط على محمد علي لوضع حد لهذه الفوضى، فأصدر في ١٥ أغسطس ١٨٣٥ أول تشريع خاص بالآثار منع تالأبني إلى الخارج، وتضمن إنشاء دار تودع فيها القطع التي عثر وسيعثر عليها، إضافة إلى منع هدم وتخريب الأبنية القديمة بالصعيد، ذكر أشرف محمد حسن علي.

تذكر انك حملت كتاب وجوه منسية حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك.

وفي عام ١٨٤٥، صدر تشريع جديد يعاقب مَن يتلف ويهدم الأبنية القديمة والتماثيل بالحبس من شهر إلى سنتين وتغريمه من أربعمئة قرش إلى ألفي قرش. وشهد عصر عباس حلمي الأول ظهور تشريعين في عامي ١٨٤٨ و١٨٤٩ يشددان العقوبة على المخالفين.

كما استهل سعيد باشا حكمه في ١٣ يوليو ١٨٥٤ بسن قانون جديد

يصب في المسار نفسه، وبدأ الخديوي إسماعيل حكمه سنة ١٨٦٣ بمراجعة القرارات الخاصة بالتراخيص. ورغم أن هذه القوانين كبّلت القناصل فإنهم لم يوفروا جهدًا في ابتكار حيل جعلتهم لا يقعون تحت طائلتها، مستغلين ضعف ذمم الموظفين في المنافذ الجمركية، كما أن محمد علي وأبناءه كانوا يسمحون بخروج آثار إلى بعض الدول التي ارتبطوا بعلاقات معها.

*****

إسماعيل المفتش..

لغز اختفاء أشهر وزير مالية في تاريخ مصر

سنة ١٨٦٨، أسند الخديوي إسماعيل وزارة المالية إلى إسماعيل صديق باشا المشهور بـ«المفتش»، خلفًا لإسماعيل راغب باشا الذي عُزل بحجة عدم خبرته في المسائل المالية، ليتولى إدارة خزائن مصر حتى اختفائه في ظروف غامضة في نوفمبر ١٨٧٦.

و «المفتش» كان أخًا للخديوي إسماعيل في الرضاعة، وعندما شبّ عمل موظفًا في الدائرة السنية، ثم تدرج في المناصب حتى حظي برتبة الباشوية، وتولى منصب مفتش عموم الأقاليم، ومن هنا حاز لقب «المفتش»، ثم أصبح وزيرًا المالية لثماني سنوات قطعتها فترة قصيرة تولى فيها عمر باشا لطفي الوزارة، سنة ١٨٧٣.

السنوات المشؤومة

«كارثة حلت بمصر». هكذا يصف عبد الرحمن الرافعي «المفتش» في كتابه «عصر إسماعيل/ الجزء الثاني». يذكر أن السنوات الثماني التي تولى فيها وزارة المالية «مشؤومة»، وجرّت الخراب المالي على مصر، وكانت «أتعس فترة في تاريخ مصر المعاصر».

ظل «المفتش» طوال هذه السنوات حائزًا لرضا الخديوي وعطفه، بعد أن تفنن في جمع المال من القروض، أو من إرهاق الأهالي بمختلف أنواع الضرائب، فكان الخديوي يجد ما يطلبه من المال كلما أراد.

وبحسب الرافعي، كان صديق أيضًا «يقتطع نصيبه من الغنيمة، فأثرى ثراء فاحشًا، وقلد مولاه في عيشة البذخ والإسراف والاستكثار من القصور والأملاك والجواري والحظايا، وإليه يرجع السبب في استدانة الحكومة نحو ثمانين مليون جنيه ضاع معظمها سدى، أو ذهبت إلى جيوب الأجانب».

ورغم ذلك، يرى مؤرخون أن الخديوي إسماعيل ليس مسؤولًا بصفة رئيسية عن الديون التي أثقلت مصر في تلك الفترة، وإنما يتحملها سلفه سعيد باشا، لأنه ترك لمصر مديونية كبيرة بعد أن خدعه القائمون على مشروع حفر قناة السويس بمنحه ٤٤٪ من أسهم القناة، بينما تلتزم مصر بسداد قيمة الأسهم الأخرى لحامليها الأجانب، وهذا ما واجهه الخديوي إسماعيل فور توليه الحكم.

تورط دون مبرر

يذكر جلال أمين في كتابه «قصة الاقتصاد المصري من عهد محمد علي إلى عهد مبارك»، أن الخديوي سعيد ترك عند وفاته ديونًا قدرُها نحو ١٨ مليونًا من الجنيهات، فضلًا عن توريط مصر في شرطين بالغي القسوة وردا في امتياز شركة قناة السويس، وأراد إسماعيل التخلص منهما.

تمثل الأول في شرط توفير عمال السخرة في حفر القناة وفي حفر ترعة تزود منطقة المياه بالمياه العذبة، الأمر الذي كان من شأنه سحب نحو ٦٠ ألف عامل من الزراعة، والثاني هو التنازل لشركة القناة عن الأراضي المتاخمة لقناة المياه العذبة وتستخدم هذه القناة في ريها.

وبحسب أمين، كان على إسماعيل تعويض الشركة عن إلغاء هذين الشرطين بمبلغ أربعة ملايين جنيه، طبقًا لقرار التحكيم الذي قضى به الإمبراطور نابليون الثالث.

وكان نحو نصف ديون سعيد مستحق الدفع عبر ثلاثين عامًا، والتعويضات المستحقة لشركة القناة كانت مستحقة الدفع بأقساط سنوية عبر ١٦ عامًا. أما الجزء الباقي من الديون وقدره نحو عشرة ملايين جنيه، ويشمل ديون سعيد قصيرة الأجل، فقد كان يكفي لسدادها كلها تخفيض الإنفاق الحكومي بأقل من ٢٠٪ خلال السنوات الخمس الأولى من حكم إسماعيل.

وبالتالي لم يكن وضع مصر المالي في بداية تولي الخديوي

إسماعيل الحكم يفرض عليها التورط في المزيد من الديون لو أديرت الأمور بحكمة، وتم تخفيض الإنفاق الحكومي، بل وأهم من ذلك لو لم يقع الحاكم الجديد تحت تأثير إغراء الأجانب له بالاستدانة، بحسب أمين.

ولكن إسماعيل لم يفعل هذا، فزاد الإنفاق الحكومي، وبعد ١٢ عامًا من حكمه، أي سنة ١٨٧٦، وهي السنة التي خرجت إدارة المالية المصرية عن سيطرته وأصبحت في يد المراقبين الماليين الأجانب، كانت ديون مصر الخارجية (بما في ذلك الديون الخاصة) قد بلغت نحو ٩١ مليون جنيه.

بداية التدخل الأجنبي

ويذكر أمين أن التدخل الأجنبي بدأ بقبول الخديوي إسماعيل، تحت وطأة الديون، أن يضع تحت تصرف الخبير البريطاني ستيفن كايف، في ١٨٧٥، ما يريد جمعه من معلومات عن إيرادات مصر ونفقاتها.

وفي السنة التالية اضطر الخديوي إلى القبول بإنشاء صندوق الدين المكوّن من مراقبين أوروبيين يمثلون أغوش الدول الدائنة، ومهمتهم تسلم وتوزيع ما تضعه الحكومة تحت تصرفهم من إيرادات بغرض تسديد الديون، وفي نفس السنة وافق على شروط تسوية إعادة جدولة الديون التي فرضها ممثلا الدائنين الإنجليزي جورج غوشن والفرنسي م. جوبير.

عقبة كبيرة

رغم تحمل صديق جزءًا كبيرًا من مسؤولية الديون التي غرقت فيها مصر خلال تلك الفترة، إلا أنه كان يعارض مرونة الخديوي مع الأجانب واستجابته لكل مطالبهم، والتي كانت تنذر بالرقابة الأجنبية على الاقتصاد المصري، وبالتالي فإن تحقيق مندوبي الدائنين لأهدافهما لم يكن ليحدث دون المرور على جثة «المفتش».

لذا يرجح فريق من المؤرخين قتل «المفتش» بواسطة الخديوي، وإن كان هنالك غموض حول كيفية القتل وأسبابه الحقيقية، خاصة أن صداقة كبيرة جمعت بينهما على مدار عمرهما، ومن ثم لا يمكن الجزم بأن الخديوي قتله لخلاف نشب بينهما على خلفية خلافهما في قضية الديون، أو بإيعاز من فرنسا وإنجلترا.

ويروي تيودور روذستين في كتابه «تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطاني وبعده» (ترجمه للعربية علي أحمد شكري) أن «المفتش» اتخذ موقفًا وطنيًا صحيحًا بمعارضته لأي إذعان من الخديوي لغوشن وجوبير.

وكان «المفتش» يقول إنه بما أن مسألة الدين ستسوى بالتوافق مع الدائنين مباشرة فمن الحمق الموافقة على تسوية أساسها ٧٪، وألّح في طلب تخفيض الفائدة إلى ٥٪ باعتبارها أقصى ما تستطيع أن تدفعه مصر دون أن تجر على نفسها الخراب.

وكان «المفتش» يرى أيضًا أن السماح بوضع مالية البلاد تحت

المراقبة يعني وضع الإدارة (أي الحكم) تحت المراقبة، وكان من رأيه أن ذلك سيكون الخطوة الأولى في تسليم الوطن إلى أيدي الأجانب وهي الخيانة العظمى بعينها.

وبحسب روزنستين، أنذر «المفتش» الخديوي بأنه إذا أقر تلك المادة من برنامج «غوشن-جوبير» ستقع ثورة. وهنالك ما يحمل على اعتقاد أن صديق ما كان ليحجم لحظة عن تنفيذ ذلك التهديد أو يتأخر عن بذل كل ما في وسعه لنجاح هكذا ثورة، ومن ثم أصبح إبعاده ضروريًا.

ويضيف الكاتب أنه بسبب عجز الخديوي عن مواجهة تهديدات غوشن، ولعدم قدرته من جهة أخرى على فصل «المفتش» بالطرق المعتادة لما كان له من نفوذ كبير، دعاه للتنزه معه ذات يوم وهنالك أوعز بقتله. ولم يمض أسبوع حتى أرسل الخديوي إلى غوشن وجوبير بقبول مشروعها.

رواية أخرى

لكن الرافعي يطرح رواية أخرى. يذكر أن غوشن كان مع مطالبته بالرقابة الثنائية، يطلب إقصاء «المفتش» عن وزارة المالية، كشرط جوهري لإصلاحها، فقبل الخديوي مضطرًا بالتضحية بوزيره وعين الأمير حسين كامل (السلطان حسين في ما بعد) خلفًا له.

ولم يكتف غوشن بذلك، بل اعتزم مقاضاة «المفتش» أمام المحاكم المختلطة عن العجز الواقع في الميزانية، متهمًا إياه بتبديد المال

والإضرار بحقوق حملة الأسهم، «فاضطرب الخديوي من هذا التهديد، وأدرك من حديثه مع وزيره، أنه لن يبقي على ولائه لمولاه في سبيل الدفاع عن نفسه، وأنه إذا قدم للمحاكمة فإنه سيشرك الخديوي معه في تبديد أموال الدولة، بل ربما ألقى عبء المسؤولية على عاتقه».

لذا فكر الخديوي في التخلص من صديقه، ودبر مشروع محاكمته بتهمة التآمر عليه، وإثارة الخواطر الدينية (أي إثارة الناس باعتبار أن الفوائد تعتبر ربا) ضد مشروع غوشن وجوبير. وقبل أن تبدأ المحاكمة، اعتزم أن يتخلص منه بلا جلبة ولا محاكمة، فاستدعاه إلى سراي عابدين، وهدأ من روعه، ثم اصطحبه إلى سراي الجزيرة، مظهرًا أنه رضي عنه.

ويروي الرافعي «ولم تكد العربة التي أقلتهما تجتاز حدائق السراي وتقف أمام باب القصر حتى نزل الخديوي وأمر بالقبض على إسماعيل صديق واعتقاله في ناحية من القصر. ومن تلك اللحظة اختفى نبأ المفتش عن الجمهور، إذ عهد الخديوي إلى أتباعه بقتله، فقتلوه، وألقوا جثته في النيل في نوفمبر ١٨٧٦».

ويذكر الرافعي: «لم يعلم الناس بادئ الأمر بما حل بالمفتش، واستمرت المحاكمة الصورية ماضية في سبيلها، وحكم المجلس الخصوصي بنفيه إلى دنقلة بشمال السودان ومسجنه بها، في حين أنه لقي حتفه قبل أن تتم المحاكمة».

الرمي في النيل

رواية قريبة من تلك التي رواها الرافعي لكن بتفاصيل أكثر استقاها ولفريد سكاون بلنت من ريفرز ولسون الذي عين وزيرًا للمالية بعد عزل إسماعيل المفتش، وذكرها في كتابه «التاريخ السري للاحتلال الإنجليزي لمصر/ رواية شخصية للأحداث»، وترجمه للعربية صبري محمد حسن.

روى بلنت أن الخديوي إسماعيل كان يدعو المفوضين الأوروبيين من حين إلى آخر لتحري أحواله المالية، وكان يخفي عنهم قدر المستطاع الحقيقة الصارخة لإسرافه غير المسؤول، واستطاع بفضل تعاون وزيره إسماعيل صديق أن ينجح في تقديم بيان غير صحيح عن ديونه للجنة «غوشين-جوبير».

ولما تنبهت اللجنة للاستخفاف بها، قرر الخديوي أن يجعل من «المفتش» كبش فداء وضحية له خوفًا من انكشاف الحقائق، وحتى يبرئ نفسه.

وبحسب بلنت، كان من عادة إسماعيل باشا مع وزيره الذي كان يرتبط به بأوثق روابط الصداقة الشخصية، أن يقوم بزيارته في المساء في وزارة المالية، ويصطحبه معه في نزهة بالسيارة إلى قصر شبرا، أو أي قصر آخر من قصوره، وهذا ما فعله، وركب الوزير الذي لم يشك في تصرف الخديوي السيارة إلى قصر الجزيرة.

وما إن دخل الاثنان القصر حتى استأذن إسماعيل منتحلًا عذرًا،

وترك صديق وحده في أحد صالونات القصر ثم أوفد إليه على الفور ولديه الصغيرين حسينًا وحسنًا، ومعهما ياوره (مرافقه الشخصي) مصطفى بك فهمي.

وبعد أن ضرب الأميران الوزير الأعزل وسباه، وُضع على ظهر باخرة من بواخر الوالي كانت راسية في النيل بلا أية مقاومة من جانبه، وسُلّم إلى شخص يدعى «إسحاق بك»، إلى أن توفى وهو معه.

وبحسب بلنت، يقول البعض إن صديق جرى إلقاؤه، مثل آخرين قبله، في النيل بعد أن رُبط حجر بقدميه، ويقول آخرون إنه أرسل حيًا إلى المنطقة الواقعة بين وادي حلفا ودنقلة، وهنالك خُنق.

وبحسب بلنت، لا شك في أن المفتش بعد أن ركب على ظهر الباخرة لم يره أحد حيًا مرة ثانية وبعد إبحار الباخرة إلى أعالي النيل بأسابيع، جرى الإعلان رسميًا أن المفتش كان في مهمة في الوجه القبلي، فأسرف في الشرب ما أدى إلى وفاته.

*****

كيرلس الرابع..

أبو الإصلاح الكنسي الذي ألغى الجزية عن الأقباط

رغم أنه لم يمكث على الكرسي البابوي سوى سبع سنوات وتسعة أشهر، إلا أن المؤرخين يصفون البطريرك كيرلس الرابع بـ«أبي الإصلاح الكنسي»، بسبب إجراءاته النهضوية التي انتشلت الكنيسة

المصرية من جمودها وتراجعها في تلك الفترة.

اسمه الأصلي داود توماس بشوت، ولد سنة ١٨١٦ في قرية الصوامعة الشرقية في مديرية جرجا في صعيد مصر وتلقى تعليمه الأولي في كُتاب الكنيسة حيث تعلّم القراءة والكتابة باللغتين العربية والقبطية إضافة إلى مبادئ الحساب.

وعندما بلغ الـ٢٢ من عمره، اتجه إلى دير القديس الأنبا أنطونيوس في الصحراء الشرقية من أجل سلك طريق الرهبنة، وسرعان ما شاعت بين الرهبان شهرة داود الصومعي بالذكاء والتواضع ودماثة الأخلاق، إلى درجة أن رئيس الدير القس أثناسيوس القلوصني كان يوكل إليه إدارة شؤون الدير أثناء سفره. وعندما توفى القلوصني، أجمع رهبان الدير على اختيار داود خلفية له، وكان ذلك أثناء بابوية البطريرك بطرس السابع الجاولي (١٨٠٩-١٨٥٢).

رحلة الحبشة

ساهمت في سطوع نجم داود الصومعي أكثر الأزمة التي نشبت عام ١٨٥١ بين الكنيستين الإثيوبية والمصرية، وسعي الأولى للانفصال عن الثانية بسبب الخلافات حول بعض الأمور العقائدية، حيث فشلت الرسائل المتبادلة في حل الأزمة، وظهرت حاجة ملحة لإيفاد أحد الآباء لاحتوائها، فرُشح البطريرك «القمص داود» لهذه المهمة الدولية، فوافق ولكنه طلب أن يرافقه أحد الرهبان ويدعى برسوم (صار بعد ذلك الأنبا يؤانس، أسقف المنوفية).

في بلاد الحبشة، قضى داود ورفيقه برسوم حوالي ١٦ شهرًا، واستطاع بالحوار والمناقشة مع مطران الحبشة والكهنة إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه، يروي إسرائيل.

تقلد الكرسي البابوي

بعد تحقيق مهمته في الحبشة، ارتفعت أسهم القمص في دوائر الحكم، خاصة لدى الخديوي عباس حلمي الأول (١٨٤٨ - ١٨٥٤)، فتم ترشيحه، أثناء سفره، لكرسي البابوية بعد شغوره بوفاة الجاولي عام ١٨٥٢، لكن ذلك قوبل بمعارضة شديدة من بعض الرهبان والأساقفة، ربما لصغر سنه، أو بسبب أفكاره الجديدة التي كان يطمح إلى تطبيقها «بهدف تطوير الكنيسة ووضعها في طريق الحداثة».

ولاحتواء الأزمة، جرى الاتفاق على رسامة داود أسقفًا عامًا يتولى إدارة شؤون البطريركية إلى حين الاتفاق على بطريرك جديد. وبعد ١٤ شهرًا في هذا المنصب، أجمع الأقباط على تزكيته للكرسي البابوي، ورُسم في يوليو ١٨٥٤ باسم كيرلس الرابع، ليصبح البابا رقم ١١٠ في تاريخ الكنيسة المصرية.

إنشاء المدارس

لم ينل كيرلس الرابع لقب «أبو الإصلاح الكنسي» من فراغ. مهّدت لذلك مجموعة إجراءات اتخذها لانتشال الكنيسة المصرية من جمودها، لا سيما أن تلك الفترة كانت تشهد نشاطًا مكثفًا

للإرساليات التبشيرية التي هدفت من خلال بعض الأنشطة الاجتماعية إلى تحويل المصريين الأرثوذكس إلى البروتستانتية أو الكاثوليكية.

وكان التعليم على رأس أولويات البابا، فأنشأ العديد من المدارس، في البطريركية وفي حارة السقايين (منطقة عابدين الآن)، وخصص بعضها للبنات، وكانت أبواب هذه المدارس مفتوحة أمام المسلمين والمسيحيين معًا، واقتصر التعليم فيها على دراسة اللغات القبطية والعربية والأجنبية والحساب.

ويذكر القس منسي يوحنا، في كتابه «تاريخ الكنيسة القبطية»، أن العرفان (أشخاص كانوا يدرسون للأطفال في الكتاتيب) سعوا، عندما علموا بأمر هذه المدارس، إلى نشر الفتن ضد البطريرك، فأوهموا أهل التلاميذ بأن البابا والوالي عقدا اتفاقًا على أن يُجنّد له الأولاد في الجيش، وكان إذا وصل البطريركية شيء من أدوات المدرسة ادّعوا أنها آلات حربية.

ولما تنامى انتشار هذا النوع من الشائعات، عمد البطريرك إلى استرضاء العرفان، فأناط بهم مهمة التعليم في المدارس، ولم تمض فترة قصيرة حتى أثمرت خطوة المدارس وأنجبت تلاميذ يجيدون التحدث بلغات مختلفة.

وتزامن تخرّج الطلاب من تلك المدارس مع إنشاءمصلحة السكة الحديدية، فانتظموا في العمل بمحطاتها، وكانوا يؤدون أعمالهم

باللغة الإنجليزية، كما عمل بعضهم في المصارف وعند التجار، لمعرفتهم باللغة الإيطالية. وبحسب يوحنا، «اهتم كيرلس الرابع بتعليم اللغة القبطية وإحيائها، فطبع بها عدة كتب بدار الطباعة في لندن، فتعلمها أبناء المدارس وتكلموا بها».

إصلاح الكتب «الفاسدة»

بيد أن أهم ما قام به كيرلس الرابع على الصعيد الإصلاحي كان إنشاء مكتبة في الدار البطريركية تضم الكتب النفيسة التي جمعها من خزائن الأديرة والمعابد القديمة، فأصلح ما فسد منها، وأمر بتصحيح الكثير من الكتب «التي كانت محشوة بالخلط والتخريف»، نتيجة امتداد أيدي الآباء السابقين إليها في العصور السابقة، حسبما ذكر يوحنا.

واتجه البابا إلى ترقية وتهذيب القساوسة، فكان يجمعهم كل سبت ويناقشهم في مسائل مختلفة ويشرح لهم واجباتهم وما يمنحهم حظوة لدى الناس، كما صرف رواتب شهرية لمن يعرف اللغة القبطية والوعظ، وبهذا حبب إليهم العلم وقاوم المبشرين في مصر والحبشة. ولمواكبة تلك الإجراءات الإصلاحية، استورد البطريرك مطبعة من النمسا على نفقة الكنيسة القبطية، للمساهمة في طباعة الكتب التي تحتاج إليها المدارس التي أنشأها، وكذلك النشرات والقرارات البابوية والمقالات والتقارير.

وامتدت إصلاحات البطريرك إلى الكنائس، فاستكمل بناء

الكاتدرائية المرقسية الواقعة في منطقة كلوت بك بالقاهرة، ورمم بعض الكنائس في مناطق عدة في مصر القديمة وحارة الروم.

إلغاء الجزية ودخول الجيش

سعى كيرلس الرابع إلى الحوار مع كل بطاركة كنائس الروم والأرمن في مصر، وحقق في ذلك نجاحات، حتى أن بطريرك الروم الأرثوذكس كلينيكوس وضع شؤون كنيسته تحت إشراف الأول عندما سافر إلى القسطنطينية.

لكن الحدث الأبرز في عهد كيرلس الرابع كان عام ١٨٥٥، عندما ألغى الخديوي سعيد باشا الجزية المفروضة على غير المسلمين، وكان هذا أحد مطالب البابا منه.

لكن هناك من يرى أن إلغاء الجزية لم يكن له علاقة بالكنيسة أو بتدخل البابا، وإنما يرجع بالأساس إلى رغبة الخديوي في تقليل الاعتماد على العنصر التركي وتأسيس جيش مصري يحلّ مكان الجيش الجهادي، وذلك بهدف تأسيس الدولة القومية المصرية، وأن إلغاء دفع الجزية كان تمهيدًا لإلحاق الأقباط بالجيش. وتردد وقتها أن البابا طلب من الخديوي إعفاء المسيحيين من الالتحاق بالجيش، وعندما سمع البابا بذلك سارع إلى إصدار بيان نفى فيه هذه الشائعات، بل وحثّ الأقباط على دخول الجيش.

وكانت تعاليم الكنيسة المصرية في تلك الفترة تؤكد حرمانية حمل القبطي للسلاح، حتى لو دفاعًا عن النفس، ولذلك استلزم

القرار السياسي الجديد سلسلة إصلاحات في التعليم المسيحي ليمتثل الأقباط لقرار الدولة. وهنا جاء دور البابا في تعديل المناهج المسيحية بحيث تتناسب مع حمل السلاح دفاعًا عن الوطن، وفي سبيل ذلك راح يغرس التوجهات الجديدة التي رآها الأصوليون آنذاك «هرطقة» عبر المدارس. وراح كيرلس الرابع يطالب بعد التحاق الأقباط بالجيش بوصولهم إلى مناصب عالية.

البابا ومكائد الإنجليز

عام ١٨٥٦، كان كيرلس الرابع على موعد مع زيارة ثانية للحبشة، إثر خلاف بين الحكومتين المصرية والحبشية على الحدود بين البلدين. وبحسب يوحنا، قيل إن السلطان عبد المجيد الأول (١٨٢٣ – ١٨٦١) هو مَن أوعز إلى سعيد باشا بإرسال البابا إلى الحبشة، للمساعدة في عقد اتفاقية بينه وبين الإمبراطور ثيودورس الثاني الذي تعدى على بعض جهات إقليمي هرر وزيلع التابعين حينذاك لمصر .

ولما علم إمبراطور الحبشة بقدوم البطريرك خرج لملاقاته في موكب حافل، وعندما بدأت مباحثاتهما طلب البطريرك منه أن يرد لمصر ما أخذه منها، فاستجاب له، ثم طالبه بترحيل المبشرين الإنجليز الذين كانوا يبشرون بالبروتستانتية، فاعتذر لأنهم يعلّمون جنوده فنون الحرب، فأجابه البطريرك بأن الحال تغيّر ولا يوجد داع لقيام حرب، فأمر ثيودورس الثاني بإخراج المبشرين من بلاده، ما

تسبب بحقد المبشرين عليه فقرروا الانتقام منه، يروى يوحنا.

أثارت النتيجة حنق الإنجليز فأوعزوا للخديوي بأن كيرلس يسعى إلى تسليم مصر لثيودورس الثاني، فتوجه إلى الخرطوم بجيش عظيم، وفي الوقت نفسه كانوا يحبكون مكيدة ضد البطريرك لدى إمبراطور الحبشة، فدسوا إليه أن قدوم كيرلس كان لطرد الإنجليز الذين يعدون له آلات الحرب حتى يتمكن خديوي مصر منه، فأمر بحبس البطريرك وقضى بحرقه حيًا.

لكن والدة الإمبراطور توسلت إلى ابنها أن يسمع دفاع البطريرك، وبالفعل استطاع الأخير إقناع الأول بحسن مقاصده، فأرسل البابا إلى سعيد باشا أن نجاحه في مهمته يتوقف على رجوعه بجيشه من حيث أتى، فاستجاب الخديوي ورجع إلى مصر، وعند ذلك تبين للإمبراطور صدق البابا واعتذر منه، بحسب يوحنا.

وفاة طبيعية.. أم بفعل فاعل؟

رغم مرور ١٦٠ عامًا على وفاته، في سن الـ٤٦، لا تزال علامات استفهام عديدة تلفها. فقد ذكرت بعض الدراسات أنه سُمم، ولكن لا توجد أدلة تؤكد ذلك، لكن المؤكد أن الوفاة كانت غير طبيعية، بحسب تقرير الحالة الصحية فى ذلك الوقت.

وهناك فريق يرى أن كيرلس الرابع مات مسمومًا من أفراد المجمع المقدس، ويعضد هذا الرأي ما ذكره القمص صموئيل تاوضروس في كتابه «باباوات الكرسي الإسكندري ١٨٠٩/١٩٧١»، الصادر ضمن

سلسة «تاريخ البطاركة»، من أن سامة الإنجليز كانوا ناقمين عليه لأنه طرد مبشريهم من الحبشة، ولم يمكّنهم من الاستيلاء على دير السلطان في القدس، واشتد حنقهم عليه عندما عزم على توحيد الكنائس الأرثوذكسية، فكادوا له عند الخديوي، وقالوا إنه يخطط للخروج عن طاعة الدولة وجعل الكنيسة القبطية تحت حماية القيصرية الروسية.

وفي تلك الظروف، استدعى محافظ القاهرة البطريرك لمقابلته من أجل أمر هام، إلا أن البابا صرف رسول الحاكم وأفهمه أنه لا يمكنه الحضور لظروف شخصية، ولكن المحافظ أصر على حضوره وأرسل في طلبه مرارًا، فلم يجد البابا مفرًا من هذه المقابلة، وتحامل على مرضه وذهب إلى سراي المحافظ. ورغم عدم الوقوف على ما دار بين البابا والمحافظ، إلا أن البطريرك عاد إلى مقره إثر المقابلة خائر القوى ومحمومًا ولازم الفراش، فأوعزت «الدوائر المتآمرة» إلى مطران الأرمن في القاهرة، الأنبا كيريل، وإلى الخواجة حنا مسرة، بأن يذهبا في الحال إلى البطريركية وأن يأخذا معهما طبيبًا.

وروى تاوضروس أن الثلاثة دخلوا على البطريرك،وأفهمه المطران أنه يثق في الطبيب لأنه طبيب الوالي، والواقع أنه كان خائنًا مأجورًا، وأعطى للبطريرك جرعة سامة، وشجعه كيريل على تناولها، وبعد أن تجرعها فقد وعيه على الفور وسقط شعره ولحيته، ثم مات، وكان ذلك في ٢٠ يناير ١٨٦١ .

علي محمد الشيرازي..

«المهدي المنتظر» مؤسس فرقة البابية

في عام ١٨٤٤ ظهرت في إيران حركة دينية على يد علي محمد رضا الشيرازي، وجاءت بمبادئ جديدة لعبادة الله تختلف عما جاء بها الرسول محمد، ما أثار حفيظة رجال الدين والشاه بعد انتشارها في مناطق عدة، وهو ما فتح الباب لمواجهات دامية جمعت بين الطرفين.

يذكر أحمد كاظم محسن البياتي، في دراسته «الحركة البابية في إيران ١٨٤٤ - ١٨٥٠»، أن محمد علي رضا الشيرزاي ولد في شيراز عام ١٨١٩، وعمل مع خاله في التجارة، ثم انتقل إلى مدينة بوشهر في العشرين من عمره، وهناك عكف على دراسة الروحانيات والكواكب، وكان يسهر كثيرًا للدراسة، ويقف ساعات تحت أشعة الشمس مكشوف الرأس، ويختار شمس الظهيرة المُحرِقة ليمارس تحتها العزلة والانفراد، ما كان له أثر في تفكيره وأفعاله التي وجدها حالة شاذة وخارجة عن المألوف، فنصحه بزيارة العتبات المقدسة في كربلاء والنجف، حيث صفاء الذهن والتقرب إلى الله.

وفي كربلاء، تقرّب الشيرزاي من كاظم الرشتي شيخ المدرسية الشيخية، والذي كان يتطرّق في أغلب دروسه إلى قرب ظهور الإمام المهدي المنتظر، ويؤكد لطلابه أنه قريب منهم، ويمكن أن يكون بينهم، وأنه لا يوصي لمن يخلفه بعد مماته بقيادة المدرسة

باعتبار أن الإمام سيظهر لهم، ودعاهم للتطهر حتى يروا جماله.

وبعد ذلك، عاد الشيرازي إلى موطنه بعد أن أمضى سنتين من الدراسة في كربلاء، وانصرف إلى التجارة.

البحث عن المهدي المنتظر

وفي عام ١٧٤٣ توفي كاظم الرشتي، فخرج أتباعه، وأبرزهم حسين البشروئي، يبحثون عن المنتظر الموعود.

وقبل أن يخرج البشروئي من كربلاء أعدّ علامتين ليمتحن بها الموعود عند ظهوره، إحداها رسالة كتبها بنفسه حول أقوال غامضة وتعاليم متشابهة صدرت من الشيخين أحمد الأحسائي وكاظم الرشتي شيخي الطريقة الشيخية، ومن يكشف الغموض عنها لا بد أن يكون هو الموعود. أما العلامة الثانية، فهي تفسير سورة «يوسف» بشكل مختلف عما هو مألوف.

وعند وصول البشروئي إلى شيراز عام ١٨٤٤، التقى علي‌الشيرازي، الذي اصطحبه إلى منزله للراحة، وهناك تبادلا أطراف الحديث حول صفات المهدي، وطلب الشيرازي من البشروئي أن ينظر إليه ربما تكون هذه الصفات مجسدة في شخصه، فعرض عليه المسائل الغامضة فأجاب عليها بيسر وسهولة، كما فسّر سورة «يوسف» بشكل مغاير ما موجود في التفاسير ما جعل حسين البشروئي يصدق دعوة علي الشيرازي، وكان أول من آمن به.

وأطلق الشيرازي على نفسه لقب «الباب»، باعتباره بابًا للإمام

الغائب ونائبًا عنه، وأطلق على حسين البشروئي لقب «باب الأبواب»، واستمدت الطائفة اسمها من هذا اللقب «البابية».

حروف الحي الـ١٨

تعاهد الشيرازي والبشروئي على إعلان الدعوة، وانضم إليهما عدد من أتباع الشيخ الرشتي، والذين كانوا يؤمنون بالظهور القريب للإمام المهدي، وبلغ عددهم ثمانية عشر، وأطلق عليهم «حروف الحي»، كناية لأول ثمانية عشر شخصًا آمنوا بدعوته حسب تنبوئه بأنهم سيجدون طريقهم إليه ويؤمنون به فردًا فردًا دون أن يدلهم عليه أي أحد، وقيمة حروف الكلمة (أي الحاء والياء) في الأبجدية هو ثمانية عشر.

وبحسب «البياني»، توزع هؤلاء في أنحاء إيران لنشر الدعوة بصورة سرية، إذ أوصاهم الباب بعدم الإعلان إلا بعد أن يأمرهم بذلك. في حين توجه هو في أكتوبر عام ١٨٤٤ برفقة الملا محمد علي البارفروش الملقب بـ«القدوس» إلى مكة قاصدًا الحج وإعلان الدعوة، إذ كان الاعتقاد السائد أن ظهور دعوة الإمام المهدي المنتظر سيكون من هذه المدينة.

وبعد أن أدى فريضة الحج أرسل الشيرازي رسالة بيد «القدوس» إلى شريف مكة محمد عون، ومادن بيت الله الحرام، يدعوهما فيها إلى الإيمان بدعوته وأتباعه، غير أنهما رفضا ذلك. وبعدها عاد الشيرازي إلى بوشهر بعد أن أعلن دعوته، وأمر أتباعه بالجهر بها.

خلاص الناس في البابية

فُسر إعلان البابية في ذلك الوقت وانتشارها بمسببات كثيرة، إذ رأى محسن عبدالحميد في كتابه «حقيقة البابية والبهائية»، أن الإيرانيين كانوا واقعين تحت فكرة ظهور الإمام المهدي المنتظر الذي سيملأ الأرض عدلًا وسينقذهم من فساد السياسة والجيش.

فيما ذكر عبدالحسين آوراه في كتابه «الكواكب الدرية في تاريخ ظهور البابية والبهائية»، أن الشيخين أحمد الإحسائي وكاظم الرشتي هيآ أذهان الناس لفكرة ظهور الإمام المهدي المنتظر بعد انقضاء ألف عام على غيبته، وطلبا منهم الاستعداد لانتظار الفرج ليخلصهم من الظلم الذي يعيشون فيه.

وفي كتابه «الوجيز في تاريخ إيران»، يرى حسن الجاف، أن احتكاك المسلمين بالدول الأوروبية، وإدراكهم الفوارق بينهم وبين الغرب ونقد أوضاعهم في القرن التاسع عشر جعلهم يتعلقون بأي داعية للإصلاح، ودفعت الناس على الإقبال على الحركة البابية.

وحي و«بيان» وتأله

ويذكر الدكتور عبدالمنعم النمر في كتابه «النحلة اللقيطة.. البابية والبهائية.. تاريخ ووثائق»، أن علي الشيرازي ادعى أنه باب ونائب ومتحدث باسم مهدي مستور، وأخذ يدلي بآراء عجيبة، ويفسر القرآن تفسيرات باطنية غريبة، ولما وجد عند بعض الناس قبولًا لأفكاره، خطا الخطوة الثانية، وادعى أنه المهدي، وأنه نبي يُوحى

إليه، وأخذ يتكلم ويكتب ما يُوحى إليه، وينشره بين أتباعه، حتى وهو في سجنه، ثم زاد غروره، وادعى أن روح الإله حلت فيه، وأخذ يقول «أنا لست أنا، بل أنا مرآة، فلا يُرى فيّ إلا الله».

وكان مما كتبه الشيرازي عن الوحي كتاب سماه «البيان»، وكتابًا آخر بالفارسية على نسقه، فالوحي كان ينزل عليه بالعربية والفارسية معًا، بحسب زعمه.

وكان لا بد للباب وقد نزل عليه الوحي ونسخ شريعة الإسلام، أن تكون له شريعة خاصة سار عليها أتباعه، منها الكفر بجميع أمور الآخرة من القيامة والبعث والصراط والحساب، وتأويل الآيات القرآنية التي جاءت بذلك تأويلات وهمية فاسدة، فكان يقول مثلًا إن القيامة «عبارة عن وقت ظهور شجرة الحقيقة في كل الأزمنة، مثلًا: بعثة عيسى قيامة لموسى، وبعثة محمد قيامة لعيسى، وبعثته– أي الباب- قيامة لمحمد، وكل من كان على شريعة القرآن، كان ناجيًا إلى ليلة القيامة (أي ليلة مبعثه)».

والصلاة عند البابية عبارة عن تكبير وتحميد للباب، والوضوء يكون بماء الورد والطيب، ومسجودهم لا يكون إلا على البللور، كما ذكر النمر.

تجلي الإله في الكون

يذكر السيد عبدالرازق الحسني في كتابه «البابيون في التاريخ»، أن أساس المعتقد البابي يُبنى على الاعتقاد بوجود إله واحد، لكنهم

يستمدون صفات الخالق من أساس العقيدة الباطنية، والتي ترى أن لكل شيء ظاهرًا وباطنًا، وأن هذا الوجود مظهر من مظاهر الله، وأن الله هو النقطة الحقيقية، وكل ما في الوجود مظهر له. أما الوجود في نظر المسلمين فهو من خلق الله.

وعقيدة البابية في النبي والإمام مستمدة من عين العقيدة بالخالق، فالنبي أو الإمام في حياته مظهر من مظاهر الله في الأرض، وارتقاؤه إلى هذه المنزلة إنما هو باستكماله صفات أخلاقية جعلته يصل إلى الحقيقة دون غيره، فمن استكمل الصفات التي استكملها النبي أو الإمام فهو أحق وأهل للتظاهر، ولهذا صح للبابا أن يكون مظهرًا من مظاهر الله في الأرض بعد النبي محمد.

ويبدو أن عدد أتباع الباب الأوائل وعددهم ١٨، والذين سموا بـ«حروف الحي»، إضافة إلى الشيرازي نفسه (العدد الإجمالي ١٩)، كان حاضرًا في كثير من الطقوس التعبدية، إذ يجب كل على البابي أن يصوم كل سنة شهرًا واحدًا (١٩ يومًا) من شرق الشمس إلى غروبها، وأن يقرأ كل يوم ١٩ آية من «البيان» ويذكر اسم الله ٣٦١ مرة، وكلما مضت ١٩ يومًا لا بد للمؤمن من دعوة ١٩ رجلًا إلى طعام أو شراب، والزوجان اللذان تفارقا يمكنهما أن يستأنفا زيجتهما بعد شهر من الطلاق، وذلك إلى حد ١٩ مرة، والأرمل من الرجال والنساء عليهم أن يتزوجوا بعد الترمل بمدة ٩٠ يومًا للرجال و٩٥ يومًا للنساء، وإلا فالغرامة.

الشاه يُعلن الحرب

ورغم تعرض أتباعه للقسوة والشدة والملاحقات من قِبَل السلطات الإيرانية، فإن الشيرازي استمر في نشر دعوته، التي لم تقف عند ادعائه بأنه الباب للإمام المهدي، وإنما أعلن أن جسم الإمام قد حل في جسمه، وهذا ما ولد خشية وقلقًا لدى حاكم فارس حسين خان، فأمر بإحضاره ومواجهته مع علماء الدين، كما روى «البيانى» في دراسته.

وعندما عرض الباب عقيدته، أفتى عددٌ منهم بردّتهوخروجه عن الإسلام ووجوب إقامة الحد عليه بقتله، في حين علل آخرون ما طرحه الباب باختلال عقله وضرورة الاكتفاء بتعزيره، وارتأى فريق ثالث أن قتله سيرفع مكانته ويحدث فتنة، لذا يجب إطلاق سراحه ويُعهد به إلى خاله، والذي طُلب منه أن يأتي به يوم الجمعة ليعتلي المنبر ويعلن توبته، وهو ما حدث بالفعل.

لم يكن الباب جادًا في توبته، إذا استمر في دعوته بمختلف المدن الإيرانية، وانضم إليها عدد من رجال الدين، ما ترتب عليه اعتقاله وسجنه عام ١٨٤٧ في قلعة «ماه كوه»، وهي إحدى مناطق أذربيجان التي كانت خاضعة لإيران، وداخل السجن أكمل الباب كتابة «البيان» الذي ضم تعاليم وعقائد أتباعه.

لم تلتفت الحكومة الإيرانية لمطالب أتباع الشيرازي بالإفراج عنه، فعقدوا مؤتمرًا عامًا لأبرز قادة البابية في يونيو ١٨٤٨ بمنطقة

«بدشت» (بين خراسان ومازندران)، وحضره ٨١ شخصية، أبرزها حسين البشروئي (باب الباب) ومحمد علي البارفروشي (القدوس) وحسين على النوري المازندراني (بهاء الله)، وزرين تاج التي سميت «قرة العين»، وهي امرأة بارعة الجمال، وُلدت في قزوين، آمنت بدعوة علي الشيرازي ودعت لها، وكان لها دور كبير في إعلان نسخ الشريعة الإسلامية، وانتهى الأمر بالقبض عليها بعد قتل الباب، وأعدمت سنة ١٨٥٢.

واستقر الحاضرون على أمرين؛ الأول تضمن دعوةالمناصرين والمؤيدين للبابية إلى التوجه للسجن لزيارة الباب، ومطالبة حكومة الشاه محمد بإطلاق سراحه، وإذا لم تستجب سيكون خيار القوة الحل الأمثل لذلك.

أما الأمر الثاني، فهو اعتماد كتاب «البيان» الذي وضعه الباب أساسًا في التعامل من دون الاعتماد على القرآن الكريم، وكان أبرز من نادَى بذلك «قرة العين» التي ذكرت للحاضرين أن الباب رسول سماوي ومؤسس لدورة دينية جديدة، ومن ثم يجب عدم التقيد بأحكام الشريعة الإسلامية لأن هناك تعاليم اجتماعية جديدة أتى بها الباب.

إعدام الباب

لم تحرك حكومة الشاه ساكنًا تجاه مخرجات المؤتمر، لكن بعد وفاة محمد شاه في سبتمبر ١٨٤٨، شدد بعض رجال الدين من

خصومتهم للبابيين، فعملوا على الاقتصاص منهم، وساعدهم في ذلك تولي ميرزا محمد تقي الدين الفراهاني الصدارة العظمى (يعادل منصب رئيس الوزراء) في عهد ناصر الدين شاه الذي كان في السابعة عشرة من عمره، وترك معالجة أمر البابية له، فأصدر الفراهاني أوامره لحكام الأقاليم بمطاردة أفراد الطائفة وتضييق الخناق عليهم، وإنزال العقوبات بحقهم.

وإزاء هذه المستجدات، كما يروي «البياتي»، تحصن البابية في بعض القرى، كما حدث في قلعة الشيخ طبرسي الواقعة في مازندران، فأمر الشاه بتهيئة الجيش لمهاجمتهم والقضاء عليهم في فبراير ١٨٤٩.

ولم تكد حكومة الشاه تقضي على البابية في طبرس، حتى اندلعت انتفاضة أخرى في قلعة «خاجة» إحدى مناطق «تبريز» بإقليم فارس جنوب البلاد عام ١٨٥٠، وقُضي عليها أيضًا، كما قُضي على انتفاضة أخرى في «زنجان» شمال غربي إيران.

تذكر انك حملت كتاب وجوه منسية حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك.

ورغم هذه الإجراءات الصارمة التي اتخذتها الحكومةتجاه البابية بالقضاء على انتفاضتهم وقتل واعتقال قادتهم، فإنها وجدت أن

القضاء على الفكر البابي لا يتم إلا بإنهاء وجود زعيمهم علي محمد رضا الشيرازي، لذا قررت إعدامه، وصدرت فتوى بذلك من علماء الدين، إذ اقتيد من سجنه في قلعة «جهريق» في أذربيجان إلى تبريز، ونفذ فيه حكم الإعدام في التاسع من يوليو ١٨٥٠ بإحدى ساحات المدينة.

صراع الأخوين وظهور البهائية

بعد إعدام الباب، كان أهم من بقي من قادة الطائفة شخصان من كبار أعوانه، وكانا أخوين، هما: حسين علي المازندراني وأخوه الصغير يحيى علي، الملقب بـ«صبح أزل».

ويذكر «النمر» في كتابه، أن «حسين» اختفى في شمال العراق في زي الدراويش والصوفية لمدة سنتين، ثم عاد إلى بغداد، وكان أخوه الصغير الذي أوصى الباب بخلافته دائم التخفي، و«حسين» كان هو الذي يظهر ويباشر الدعوة مع الناس. وانتهى الأمر بين الحكومة الإيرانية، والحكومة العثمانية، التي كانت العراق إحدى ولاياتها، إلى إبعادهما عن العراق إلى الآستانة عاصمة الخلافة في أغسطس ١٨٦٣.

وهناك ظهر اختلافهما على الزعامة حيث طمع حسين فيها لشعبيته بين البابيين غير مبالٍ بوصية الباب لأخيه، حتى افترق كل منهما في بيت وله أنصاره، وأخذ يدعو لنفسه، وقامت المنازعات بينهما، ما حدا بالحكومة إلى إبعادهما إلى «أدرنة» شمال غربي

تركيا.

وفي أدرنة اشتدت الخصومة بينهما، وصار كل فريق يدس للآخر، وقامت بينهما المعارك نحو خمس سنوات، كانوا فيها مثار إخلال بالأمن وبث الفوضى، فاتفقت الحكومتان العثمانية والإيرانية عام ١٨٦٥ على التفريق بينهما، فنُفي «حسين» إلى عكا في فلسطين، ومعه بعض أصحابه المخلصين، فيما نُفي «يحيى» مع بعض أصحابه إلى «فاماكوستا» في جزيرة قبرص، وكانت المنطقتان تابعتين للدولة العثمانية .

وكان الميرزا حسين بظهوره بين التابعين لهم، ومباشرته لشؤونهم أكثر أتباعًا وأشد قوة من «يحيى»، لا سيما أن وجوده في عكا ساعده على سهولة الاتصال بتركيا والبلاد العربية وإيران، أكثر من أخيه في قبرص، وبذلك وجد الجو مهيئًا أكثر للدعوة لنفسه بأنه البهاء «خليفة الله» الذي بشر به وجعله خليفة له، وانتزع بذلك الخلافة من أخيه، ثم ترقى في الإعلان فأعلن أنه المهدي المنتظر، ثم تدرج منها إلى النبوة، ثم إلى ادعاء أن الإله حل فيه، وكتب كتابًا سماه «الأقداس» وصف فيه نفسه بصفات الله.

وقبل وفاته في مارس ١٨٩٢، عهد «حسين» إلى ابنه «عباس» بتولي الأمور من بعده، ثم لولده الثاني «محمد علي»، ومن بعدهما قُفل الباب، فلا يكون مهدي ولا نبي لمدة ألف سنة، وهكذا قاد حسين على المازندراني البابيين، وأصبح هو «البهاء»، أي حلول الله

بنوره وظهوره فيه، وباتت الحركة تسمى باسمه «البهائية» .

وبحسب «النمر»، دعا «حسين» إلى نسخ الشريعة الإسلامية، وإلى توحيد الأديان على شريعة النبي موسى، وأدخل كثيرًا من التغيير على العبادات في الإسلام في الصلاة والصوم والحج والطهارة، كما غير في الشهور، واتخذ تقويمًا خاصًا لطائفته يبدأ من ظهور دعوة الباب سنة ١٨٤٤، فانسلخ بذلك عن الإسلام نهائيا هو وأتباعه، والذين لهم تواجد في عدد من الدول إلى الآن، لكن لا توجد إحصائيات رسمية بعددهم.

وفي المقابل، اتبع بعض البابيين صبح الأزل، باعتبار أن «الشيرازي» بشر به، فأسس ديانة «البابية الأزلية»، ولم يخرج كثيرًا عن مبادئ سلفه، وكان لأتباعها دور كبير في الثورة الدستورية التي شهدتها إيران عام ١٩٠٥، وما زال يتبعها عدد قليل في إيران وأوزبكستان، فيما فضّل فريق ثالث عدم أتباع أي من الشخصين وسُموا «البابيون الخُلص».

* * * * *

عبد العزيز دولتشين..

جاسوس روسي في الحرم المكي

في عام ١٨٩٨ أرسلت السلطات القيصرية الروسية ضابطًا روسيًا مسلمًا يدعى عبد العزيز دولتشين إلى أراضي الحجاز بقصد الحج كسبب معلن، ولوضع تقرير عن مشاهداته وانطباعاته عن حال بلاد

العالم الإسلامي كسبب مضمر وذلك في إطار الصراع الاستعماري بين الإمبراطوريات في ذلك الوقت.

وكتب الضابط تقاريره الوثائقية، والتي جمعها فيما بعدالكاتب الروسي يفيم ريزفان في كتاب بعنوان «الحج قبل مئة سنة/ الرحلة السرية للضابط الروسي عبدالعزيز دولتشين إلى مكة المكرمة ١٨٩٨ - ١٨٩٩ »، حيث ألقى الضوء على كثير من الأمور الخاصة بأداء المسلمين للحج والصعوبات التي كانت تواجههم آنذاك.

النهب والاعتداء

تكمن أخطار السفر للحج في ذلك الوقت في عمليات النهب التي يقوم بها البدو، وفي اعتدائهم السافر على القوافل، وكذلك المقاومة المسلحة التي تبديها بعض القبائل لمرور القوافل في أراضيها. قال دولتشين في تقاريره إن البدو ينقسمون إلى كثير من القبائل التي يشرف على كل منها شيخ، وتشغل كل منها منطقة معينة، وهناك قبائل غالبًا ما تتعادى فيما بينها وتهاجم بعضها بعضًا ولها حسابات دائمة بصدد الدم.

وهم يعتبرون أنفسهم الأسياد الحقيقيين لمناطقهم، ولهمالحق في أن يجيزوا أو يمنعوا القوافل من المرور في أراضيهم. ويحمل البدوي دائمًا الأسلحة في اليدين، سواء بندقية شطف «بقداحة» أو بندقية بفتيل أو رمح، وعلى الكتف أو على الظهر يتدلى سيف ذو

حد أو حدين، وعلى حزامه الجلدي مسدس وخنجر، ولوازم معدنية مختلفة لحفظ البارود والرصاص.

وبندقية الشطف تعتمد في إشعال بارودها على المقمع، الذي يحتوي في قعره على كبريت يشتعل بالضغط على الزناد. ومن أسمائها «القداحي» أو «المقمع». أما بندقية الفتيلة، فهي ذات قصبة طويلة تُدك بالبارود من فوهتها بسيخ يسمى «المدك»، وبندقية الرمح هي بندقية يُركب في مقدمتها سكين.

وفي الطريق بين مكة وجدة، حيث الحركة الدائمة، تشكلت عصابات كاملة من قطاع الطرق تنهب وتسلب على الدوام رغم وجود المخافر، أما في الطريق بين مكة والمدينة المنورة وينبع فإن هذا الشر يتطور أثناء حركة الحجاج فالقبائل برمتها تتعاطى السلب والنهب، من دون أن تعتبر ذلك جريمة، وتبيع علنًا وبكل حرية ما تحصل عليه من الأشياء بهذه الطريقة.

ويروي دولتشين أنه أثناء إحدى الوقفات في الطريق بين مكة والمدينة المنورة، ظهر بدوي، وأخذ يتنقل على الركب كله، عارضًا بيع سلاح وحزام وألبسة حج، وبدلة حاج اعترف بقتله على المكشوف، ورغم السعر التافه الذي طلبه لم يعمد أحد من الركب إلى شراء المعروض.

والبدو الذين يتعاطون السلب والنهب، يتتبعون القافلة كما تتبع الذئاب الجائعة القطيع، متخفين نهارًا في مكان ما يترقبون

المسافرين المتخلفين. وحين تتوقف القافلة في الظلام لأجل الراحة ينقضون عليها، ويحدث في هذه الحال الهرج والمرج. ثم يتسنى لهؤلاء الضواري، أن يختلطوا مع أهل القافلة، ويقطعوا الزنانير التي تحفظ فيها النقود عادة، صاعقين مسبقًا بضعة أشخاص بضربات على مؤخرة الرأس بالهراوة وهو ما يسفر غالبًا عن الموت.

وقال الضابط الروسي في تقاريره إن هناك اعتقادًا بأنمقترفي أعمال النهب والسلب هم سواقو جمال القافلة، الذين يعرفون الأشران، ويعطونهم التعليمات بصدد من ينهبون وكيف. لهذا يحاول المسافرون أن يستميلوا سواقي الجمال في قافلتهم، بإعطائهم يوميًا البخشيش وبقايا الطعام وما شابه.

مصاعب الانتقال

ويستعرض الكتاب مصاعب الحركة وانتقال الحجاج من مكان لآخر فتربة جميع الطرق في الحجاز من الرمل الخشن جدًا. وهي موجودة بجوار الجبال وتتناثر فيها أحجار متفاوتة الكبر. أما الطرق الضيقة والمعابر فتعترضها كسور من الصخور تصعّب الحركة كثيرًا، وبين مكة المكرمة والمدينة المنورة، توجد أربع طرق إحداها تتلوى حول جبال الحجاز من الشرق، وأخرى من الغرب.

واختيار هذه الطريق أو تلك عند الانطلاق من مكة، يجري عادة بإشارة من الشريف الذي يعرف العلاقات بين مختلف القبائل، كما

يعرف وضع الأمور بين البدو. وهناك طريق خامسة هي السبيل البحري، لكنه يتسم بالوعورة الشديدة، لذا لا يستفاد منه. وبحكم العادة عند البدو، يستطيع جميع المارة أن يستقوا الماء من الآبار بلا عائق ومجانًا، أما ماء الصهاريج فلا يمكن الحصول عليها إلا بشرائه.

ونظرًا لمخاطر الطريق تسير القوافل عادة في النهار،وتنطلق في الصباح الباكر وتتوقف تبعًا لطول الرحلة. وتصطف الجمال وفقًا لعرض الطريق، في ثلاثة أو أربعة خطوط متوازية، ويمضي سائسو الجمال دائمًا سيرًا على الأقدام مهما كان الطريق طويلًا، لأن الرِحال التي تشغل مكانًا كبيرًا من حيث العرض غالبًا ما تتصادم، كما أنهم لا يستطيعون الجلوس عليها، لأنهم قد يتعرضون لخطر الوقوع.

وفي أوقات القيظ من السنة، ينطلق الركب بحكم الضرورة ليلًا، في الساعة الواحدة أو الثانية، ويتوقف الساعة السابعة صباحًا. ثم ينهض في الرابعة بعد الظهر، ويسير حتى الثامنة أو التاسعة مساءً. والمسافة بين جدة ومكة، تقطعها القوافل عادة في غضون يومين، مع وقفة للمبيت الليل. أما المسافرون على ظهور البغال، فيتسنى لهم قطع المسافة في يوم واحد.

تجارة الرقيق

تنتعش تجارة الرقيق كثيرًا أثناء تجمع الحجاج. جاء في الكتاب أن الأرقاء الذين يباعون في الحجاز، ينتمون حصرًا إلى قوميتين: الزنوج السود تمامًا من السودان، الذين يعتبرونهم في الحجاز

أفضل الكادحين ويشترون منهم الرجال والنساء لأجل العمل فقط، والثانية هم الأحباش وهم أقل سوادًا وتُباع النساء كمحظيات.

ويشغل سوق النخاسة في مكة حوشًا مفتوحًا غير كبير، تطل عليه أبواب غرف يحبسون فيها المباعين لقضاء الليل. وقال دولتشين: «حين زرت هذا السوق كان هناك زهاء ٨٠ شخصًا، معظمهم شابات حبشيات مع اثنتين أو ثلاث منهن أطفال رضع، وجميعهن مزيّنات ومصفوفات فرقًا على دواوين طويلة. وكان هناك مقعدان يجلس عليهما كادحون راشدون من الزنوج، وهم لابسون بعناية ومقصوصو الشعر، والبقية كانوا أولادًا من ذكور وإناث، يلعبون بمرح وهناء في أماكنهم.

وأشرف على البيع تاجر عربي نشيط راح يمدح بصوت مدو مزايا بضاعته. اختار بعض الشراة من البدو النساء، وتفحصوا عيونهن وأفواههن، وأجبروهن على خلع ملابسهن».

وتتفاوت أسعار الرقيق، فبلغ سعر الفتاة الزنجية الراشدة نحو ٢٠ ليرة تركية، والفتاة الحبشية الراشدة ٣٠ - ٤٠ ليرة، والسعر نفسه بالنسبة للزنجي أو الحبشي. أما الأولاد، ذكورًا وإناثًا، فتراوح أسعارهم بين ١٠ و١٥ ليرة. الشراة على العموم هم من سكان الجزيرة العربية، خصوصًا سكان الحجاز، وفي مكة والمدينة لا يوجد بيت ليس فيه عبد وعبدة يقومان بجميع الأعمال البيتية .

ويشتري الحجاج العبيد لكي يعتقوهم ويعيدوا إليهم الحرية، لأن

إعتاق العبد يعتبر بموجب تعاليم الإسلام من أكثر أنواع الإحسان إرضاءً للرب. وفي جميع مدن الحجاز، وفي جميع القبائل البدوية، يوجد عدد كبير من الأرقاء السابقين الذين أعتقهم أسيادهم أو افتداهم الحجاج.

الأوبئة والأمراض

تنتشر أوبئة الكوليرا أحيانًا كثيرة في وقت توافد الحجاج، بمتوسط مرة كل ثلاث سنوات. فتفتك بأكثر من نصف الحجاج، وتمتد إلى أماكن ترحل البدو المجاورة، وإلى أماكن آهلة أخرى في الجزيرة العربية.

تذكر انك حملت كتاب وجوه منسية حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هتظهرلك.

أشار دولتشين في تقريره إلى أن هذا الوباء يبدأ أحيانًا عند عرفات، ولكن بشكل ضعيف، لذا لا يسترعي الانتباه، لكنه ينتشر بكثرة في منى، ويبلغ قوته القصوى. وإذا سارت جميع الأمور على ما يرام عند الانطلاق إلى عرفات وحتى مساء اليوم الأول من الإقامة في منى، فقد يكون هناك أمل في أن الوباء لن ينشب هذه السنة.

ومن أشهر الأوبئة التي أصابت موسم الحج، كان سنة ١٨٢١وجاء

من الهند إلى الحجاز، ومات بسببه ثلاثة أرباع الحجاج، ونشب الوباء التالي سنة ١٨٣٤ ثم سنة ١٨٣٧ وسنة ١٨٤٠. ثم عاثت الكوليرا فسادًا طوال خمس سنوات على التوالي من سنة ١٨٤٦ حتى ١٨٥٠، ثم أطل الوباء برأسه في سنة ١٨٦٥ وكذلك في سنة ١٨٨٣.

وفي ١٨٩٥ حصل أيضًا وباء يشبه حمى التيفوئيد أو الزحار «الدومنتاريا»، فبدأ في قافلة انطلقت من المدينة المنورة إلى مكة، واستمر بدرجة ضعيفة عند عرفات ولم ينتشر في ما بعد، وانتهى في منى. عام ١٨٦٦ بدأ تطبيق قاعدة تفرض على الحجاج تقديم أضاحيهم في الأمكنة المعينة وحدها دون غيرها، وطمر جيف الحيوانات المذبوحة، باعتبارها مصدرًا لانتشار الأمراض والأوبئة، في حفر مُعدّة سلفًا، ولكن هذا التدبير لم يوضع تقريبًا موضع التنفيذ.

وفي مكة المكرمة والمدينة المنورة، يوجد ما يسمى بالمحجر الصحي، وتوجد لوازم مستشفى متنقل يتسع لثلاثين سريرًا، يتعين فتحه في الخيام، إذا انتشر أي وباء. والمحجر الصحي المكي ينتقل مع الحجاج إلى عرفات، ثم إلى منى، حيث يوجد مبنى خُصص من أجله، وفي هذين المكانين، كما في مكة، يغطي المستشفى الأدوية مجانًا، ويقدم الإسعاف الطبي الجوال للحجاج المرضى، وهذا المستشفى يكون عاجزًا تمامًا إذا نشب وباء جدي خطير بين هذا العدد من الحجاج.

وقامت محاولة لإنشاء مقصورة بخارية في جوار مكة، لتعقيم

ألبسة وأمتعة الحجاج العائدين من منى. لكن مبنى المقصورة الذي انتهى بناؤه دمره البدو حين كان الحجاج عند عرفات. حسب ما ذكر الضابط الروسي.

حالة البيوت

وأضاف دولتشين في تقريره عن حالة السكن والشوارع أن البيوت المخصصة لإقامة الحجاج في مكة والمدينة، تتصف ببالغ النظافة والترتيب، ولكن تفوح من بعضها رائحة كريهة في الطوابق السفلى، خصوصًا إذا كان عدد ساكنيها كبيرًا. فتنظيف البالوعات يجري غالبًا مرة واحدة في السنة، وبعض أصحاب البيوت لا يقومون بهذه العملية إلا مرة واحدة كل سنتين أو ثلاث.

ولا تتميز شوارع مكة باستقامة التخطيط ولا بدقته، فالبيوت تتقدم تارة وتتأخر تارة أخرى عن الخط العام، لذلك يختلف عرض الشارع الواحد نفسه في مختلف الأماكن، وتنتصب في الشوارع أكشاك خشبية ملتصقة بالمباني تتحول في زمن الحج إلى دكاكين، كما يصف التجار طاولاتهم، لذا تبدو الشوارع أضيق. ونظرًا لعدم وجود الأحواش والأفنية، فإنهم يرمون النفايات في الشارع، وللسبب نفسه يحفظون فيها كل الدواجن، ويجلبون أيضًا الأبقار والماعز. والشوارع مرتع لأسراب كبيرة من الكلاب الشاردة. ولا وجود في مكة للشوارع المرصوفة ولا للرش وللإنارة، إنما يعلق الناس مصابيح الجاز.

إسرائيل زانغويل..

مهندس مشروع توطين اليهود في ليبيا

في مطلع عام ١٩٠٤، تقدم رئيس المنظمة الصهيونية العالمية ثيودور هرتزل بمقترح إلى الملك الإيطالي فيكتور عمانويل الثالث يرمي إلى تحويل مسار الهجرات اليهودية من أوروبا الشرقية إلى طرابلس الغرب، ليستوطنها اليهود ويقيموا فيها حكمًا ذاتيًا في ظل القوانين والمؤسسات الإيطالية.

لم يُقدِم هرتزل على هذه الخطوة من فراغ، ولكنه فعل ذلك بعدما اكتشف ما كانت تُبيّته إيطاليا من نيات استعمارية تجاه ليبيا، حسب ما ذكر الدكتور أمين عبدالله محمود في كتابه «مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى».

لكن هرتزل صُدم عندما تلقى ردًا من الملك الإيطالي تضمّن عدم إمكانية بلاده تقديم الدعم للمنظمة الصهيونية في هذا المجال، لأن «طرابلس الغرب وطن للآخرين»، ولا سلطان لإيطاليا عليها.

ويبدو أن الملك الإيطالي آثر عدم تقديم أي تعهد ملزم للمنظمة الصهيونية خوفًا من افتضاح نيات إيطاليا الاستعمارية تجاه ليبيا، وما يمكن أن يسببه هذا من مشاكل في علاقاتها مع الدول الأوروبية الأخرى، وخاصة بريطانيا وفرنسا، إضافة إلى الدولة العثمانية.

تجدد المحاولة

تجددت المحاولات الاستيطانية في ليبيا عقب وفاة هرتزل في يوليو ١٩٠٤، ولكن هذه المرة بإشراف «المنظمة الصهيونية الإقليمية» التي كان يترأسها إسرائيل زانغويل، والتي سعت لإيجاد بقعة استيطان مناسبة ليهود أوروبا الشرقية يتوفر فيها المناخ الملائم والتربة الصالحة للزراعة، وأن تكون محاذية للبحر على أن يسعى اليهود من خلالها لإقامة حكم ذاتي في ظل الدولة المسيطرة.

ويذكر أمين عبدالله محمود في كتابه أن الاهتمام بموضوع الاستيطان اليهودي في ليبيا ظهر في أعقاب زيارة أستاذ التاريخ في جامعة باريس ناحوم سلوش لطرابلس الغرب في يوليو ١٩٠٦، إذ قدم لاحقًا تقريرًا إلى زانغويل حول استعداد السلطات العثمانية هناك لقبول فكرة إنشاء مستوطنات يهودية في منطقة الجبل الأخضر في ولاية برقة.

وفي تلك الأثناء، كانت الحكومة البريطانية قد أوعزت إلى قنصلها العام في تونس هاري جونستون أن يقترح على زانغويل فكرة إنشاء وطن قومي لليهود في المنطقة نفسها وإرسال بعثة لدراسة أحوال المنطقة، مؤكدًا له استعداد والي ليبيا العثماني رجب باشا (١٩٠٤ – ١٩٠٩) لتقديم جميع التسهيلات الممكنة لأفراد هذه البعثة.

درس زانغويل وأعضاء منظمته تقرير سلوش واقتراح جونستون،

ووجدوا أن ولاية برقة مكان يصلح للاستيطان اليهودي، فالمنطقة تقع على الشاطئ الجنوبي للبحر المتوسط مما يسهل عملية جلب المهاجرين اليهود إليها من روسيا ورومانيا، كما أن قربها من فلسطين أدى لتصور الكثير من اليهود أن بمقدورهم الانتقال منها في مرحلة لاحقة إلى «أرض الميعاد».

أكثر من ذلك، فقد رأى سلوش أن برقة تتمتع بمكانة خاصة في التراث اليهودي، إذ كانت مأوى لعدد كبير من اليهود منذ أيام الإسكندر المقدوني والبطالمة، وبالتالي هي أوثق اتصالًا بالتاريخ اليهودي من قبرص أو أوغندا أو غيرهما من البلدان التي اقتُرحت للاستيطان اليهودي.

وكان زانغويل يرى أنه من السهل تحقيق غلبة النفوذ اليهودي وضمان تفوقه العددي عن طريق جلب أعداد كبيرة من اليهود إلى برقة، ودفع السكان الأصليين للهجرة باتجاه الصحراء.

ترحيب والي طرابلس

اختمرت الفكرة في أذهان أعضاء المنظمة، فسارعوا إلى إجراء اتصالات مع والي طرابلس الغرب، الذي كان بحكم رئاسته للقوات التركية في أفريقيا قد حصل تقريبًا على كل سلطات نائب السلطان في البلاد، كما ذكر مصطفى عبدالله بعيّو في كتابه «المشروع الصهيوني لتوطين اليهود في ليبيا».

وانتهز زانغويل فرصة زيارة سلوش لمدينة طرابلس ودرس معه

المشروع، ولدى وصوله -أي سلوش- إلى طرابلس التقى رجب باشا والكاتب العام للولاية بكير بك، وناقش معهما الأوضاع الاقتصادية ليهود ليبيا وإمكانية تطوير نشاطهم الزراعي بإعطاء الفرصة لإيواء اليهود الفارين من روسيا في ولاية طرابلس.

وبحسب بعيو، فقد «أبدى رجب باشا روحًا ودية نحو الشعب اليهودي، وأكد استعداده لعمل كل شيء في استطاعته لتحرير اليهود مما كانوا يعانونه».

ويبدو أن الوالي كان في عطفه على يهود روسيا متأثرًابالعلاقات غير الودية التي طبعت العلاقات التركية - الروسية، والتي جعلت الأتراك يعيشون في خوف دائم من الأطماع الروسية، فضلًا عن أنه كان يريد أن يتخذ من هذا الاستيطان وسيلة لإيقاف الأطماع الإيطالية في ليبيا.

لكن الغريب أن رجب باشا «لم يقف في دراسته لمشروع الاستيطان اليهودي في ليبيا عند النشاط الزراعي لليهود في البلاد، ولكنه ذهب في تفكيره إلى أبعد من هذا بإثارة تطوير الولاية وصناعاتها، فناقش بعض المشروعات الهندسية في البلاد وإنشاء الموانئ الكبيرة وبناء أسطول تجاري يهودي في البحر المتوسط»، على ما روى بعيو.

وتطرق نقاش سلوش مع الباشا ورجاله إلى مسائل الاستقلال المالي والديني لليهود في مشروعهم بطريقة تضمن لهم الحماية

من تعسف صغار الموظفين، وتضمن لهم عمليًا إقامة حكومة ذاتية مع إعطائهم الحماية العسكرية ضد أي عدوان قد يتعرضون له من أهل البلاد، مع ترك بقية أجزاء الولاية لحالها كما هي.

والواضح أن مهمة سلوش كانت سهلة ليس بسبب تجاوب الوالي العثماني مع المطالب اليهودية فحسب، وإنما أيضًا بسبب وجود اليهودي يعقوب كريغر في منصب الترجمان العام للولاية.

وذكر بعيو أن كريغر قدم إلى طرابلس من سالونيك اليونانية، ليحل محل المسيحي الكاثوليكي جرجس فائق.

ومع أن حكومة الولاية لم ترحب به أول الأمر لخوفها من تعاونه مع الأجانب شأن كل اليهود الذين كانوا يعيشون في طرابلس، والذين كانوا يحملون الجنسيات الأجنبية حتى يستفيدوا مما كان للأوربيين من امتيازات خاصة في الدولة العثمانية، لكن كريغر استطاع بمهارته الخاصة أن يستحوذ على رضا الباشا، وهذا ما مكّنه من تقديم الكثير من الخدمات لبني دينه وفي مقدمتهم سلوش.

وهكذا قدمت حكومة الولاية كل التسهيلات اللازمة للمؤرخ اليهودي، حتى أن الوالي نصحه بزيارة منطقتي مسلاتة والجبل الغربي واستكشاف إمكاناتهما للاستيطان اليهودي قبل الذهاب إلى برقة من أجل المهمة نفسها.

خطة التوطين

ويذكر بعيو في كتابه أن خطة توطين اليهود في ليبيا كانت تقوم على أساس الإسراع في إخراجهم من روسيا في جماعات صغيرة تضم عشر أسر يهودية أو عشرين كل بضعة أسابيع، وهكذا تتمكن السلطات التركية في ليبيا أن تستوعب أعداد المهاجرين من اليهود.

وبهذه الطريقة أيضًا تستطيع حكومة الولاية أن تطلب بسهولة من الباب العالي الموافقة على اعتماد ضيافة اليهود اللاجئين، والذين سيكون بإمكانهم العيش في ليبيا رعايا عثمانيين في ظل استقلالهم الخاص بهم.

وبحسب بعيو، فضّل زانغويل البدء في المفاوضات المباشرة مع حكومة الباب العالي في إسطنبول دون أي تأخير، وذلك للاستفادة من السياسة التركية التي كانت تهدف إلى منع العناصر الأوروبية غير اليهودية من الهجرة إلى ليبيا، وكانت المنظمة اليهودية ترى في ذلك حماية للمهاجرين اليهود إلى برقة من طغيان الأوروبيين وخاصة الإيطاليين.

بعثة علمية

وبرغم الإغراءات التي قدمها رجب باشا ورجال إدارته، كان الحذر يخيم على مجلس المنظمة نحو المشروع، كما أن اللجنة الجغرافية التي كوّنها المجلس لدراسة المشروع لم تكن متحمسة للقيام بالإجراء السريع، وطالبت بإرسال بعثة علمية لاستقصاء الحقائق ميدانيًا.

ويذكر مصطفى محمد الشعباني في كتابه «يهود ليبيا: دراسة سياسية وقانونية حول دعاوى المطالبة بالتعويض عن أملاكهم في ليبيا»، أنه في منتصف يوليو ١٩٠٨، أرسلت المنظمة بعثة علمية متخصصة راعت في أن يكون أعضاؤها من غير اليهود، بغرض الوصول إلى نتائج مجردة لا تغلب عليها أية تأثيرات. وتولى رئاسة البعثة غريغوري الذي كان أستاذ الجيولوجيا في جامعة غلاسكو البريطانية.

وضمت البعثة عددًا من الخبراء مثل جون تروتير الذي عُهدت إليه دراسة الأوضاع الزراعية، وريغانالد ميدلتون وولتر هنتر وماثيو دف وكانت مهمتهم دراسة الموارد والإمكانات الهندسية للإقليم، وم. كيدر ومهمته دراسة الأحوال الصحية في برقة ومدى صلاحيتها للاستيطان، إضافة إلى ناحوم سلوش وكان اليهودي الوحيد في البعثة ومهمته دراسة الخلفية التاريخية لليهودية واليهود في برقة كأساس لقيام الوطن اليهودي.

موافقة السلطان

في تلك الأثناء، اتصل زانغويل بصديقه اليهودي أرمينيوس فامبري الذي كان أستاذًا في جامعة بودابست وصديقًا شخصيًا للسلطان عبد الحميد الثاني، وعرض عليه المشروع لما كان له من مكانة في البلاط العثماني، فرحب فامبري به ورآه أكثر سهولة في التنفيذ من مشروع الاستيطان في فلسطين، خاصة أنه يُجنّب اليهود الصراع مع المسلمين والمسيحيين باعتبار أن فلسطين مهمة

لكل من الجماعتين.

ولم يكتف فامبري بإبداء رأيه، وإنما أرسل المشروع إلى السلطان العثماني عن طريق سكرتيره الأول تحسين باشا، وأرفق به ما يوضح الملابسات السياسية التي ستصاحب المشروع، كأن يعترف السلطان بالمستوطنين كرعايا له، على أن يمنحهم حكمًا ذاتيًا مقابل جزية سنوية يجمعونها بأنفسهم ويسلمونها إلى المالية التركية.

وبحسب بعيو، لم يُبدِ السلطان أي حركة تُظهر عدم رضاه على المشروع، لذا طلب فامبري من زانغويل أن يكتب بنفسه إلى السلطان مؤكدًا له أن الأخير سيرد على رسالته بسرعة.

تغيّر المعطيات

في الوقت الذي كان فيه زانغويل يستعد لإرسال رسالته إلى تحسين باشا، جاءت الأخبار بوقوع انقلاب في إسطنبول على يد جمعية «الاتحاد والترقي»، وخلع السلطان عبد الحميد الثاني في أبريل عام ١٩٠٩، وتولي أخيه السلطان محمد الخامس مقاليد الحكم.

وعندما عادت البعثة من رحلتها في الجبل الأخضر إلى طرابلس، وجدت أن رجب باشا ترك البلاد في طريقه إلى إسطنبول ليكون وزيرًا للحرب في الوزارة الجديدة.

وإذا كانت المنظمة اليهودية قد تضايقت من مغادرة رجب باشا لطرابلس في أول الأمر، إلا أن آمالها انتعشت بعد أن أصبح الرجل مسؤولًا كبيرًا في إسطنبول نفسها، بل في مقدمة رجال الحكم في

العهد الجديد الذي جاء معتمدًا على الجيش، إذ بات يتولى زمام الأمور فيه بحكم منصبه كوزير للحرب ثم أصبحت المنظمة تنظر إلى مشروعها على أنه مضمون النجاح، حسب بعيو.

خالف الواقع توقعات المنظمة، وتلقى مشروعها ضربة قاصمة. خلال أيام، أبحر رجب باشا إلى اسطنبول وسط ابتهاجات شعبية كبيرة، لكن لم تمر عدة أيام حتى فارق الحياة، وكانت وفاته خسارة كبيرة لليهود كما قال زانغويل نفسه الذي اعترف بأن المنظمة لم تدفع له أو لأي من أعوانه رشوة مقابل مواقفه الودية الحماسية من المشروع.

لكن الضربة الأكثر إيلامًا تمثلت في التقرير الذي أصدرته المنظمة اليهودية في أول يناير عام ١٩٠٩، وأسمته «الكتاب الأزرق».

وتضمن التقرير نتائج أعمال البعثة التي جاءت مخيبة للآمال لعدم توافر مياه جوفية في برقة، بسبب تكوينها الجيولوجي الذي لا يسمح للتربة بالاحتفاظ بمياه الأمطار.

واشترط التقرير اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمواجهة المجاعات التي تتبع سنوات الجفاف لكي تكون برقة صالحة لاستيطان اليهود، لافتًا إلى أن هذا الأمر سيكلف مبالغ باهظة، حسب ما ذكره الشعباني في كتابه.

وبالرغم من كل ذلك، لم تهن عزيمة زانغويل وأعضاء منظمته إذ ظلوا مصممين على تنفيذ المشروع، غير أن انشغال الاتحاديين

بالمشاكل الداخلية الحادة جعل أمر الدعم السلطاني للاستيطان اليهودي في ليبيا أمرًا غير ذي بال خاصة بعد وفاة رجب باشا، حسب كتاب محمود.

تصاعدُ الأطماع الإيطالية التي انتهت بغزو ليبيا واحتلالها عام ١٩١١ زاد الموضوع تعقيدًا. ولم تمر سنوات حتى اندفع العالم برمته إلى الحرب العالمية الأولى، وهكذا قُضي على مشروع إنشاء الوطن اليهودي في ليبيا.

*****

جويدان عبدالله..

زوجة السلطان تكشفت العالم السري لقصور الحريم

عام ١٩٠٥، قادت المصادفة الخديوي عباس حلمي الثاني للتعرف على سيدة مجرية الأصل هي ماري دي توروك في باريس، فصادقها وجاء بها إلى مصر واتخذها عشيقة له، ومنحها سراي مسطرد (شرق القاهرة) لتقيم بها

في تلك السنة، كان قد مرّ ١٣ عامًا على تولي عباس حلمي الثاني حكم مصر خلفًا لأبيه الخديوي توفيق المتوفي سنة ١٨٩٢. وقتها كان عباس في الثامنة عشرة من عمره وتم استدعاؤه للإمساك بمقاليد السلطة من النمسا، حيث كان يدرس في الأكاديمية العسكرية التريزية «Theresian Military Academy» التي

كان يرتادها أبناء الملوك والأمراء.

بعد قليل من مجيئها إلى مصر اعتنقت توروك الإسلام، وغيرت اسمها إلى جويدان بنت عبد الله، وتزوجها الخديوي عام ١٩١٠ رغم اعتراض أصدقائه، وعلى رأسهم سعد زغلول الذي وصفها بأنها غانية تتردد على بيوت العاهرات، بحسب «مذكرات سعد زغلول» التي كتبها الدكتور عبدالعظيم رمضان.

وكما توقع كثيرون، انتهى الزواج بالانفصال عام ١٩١٣، بعدما ووجه الخديوي بعاصفة من الاعتراضات سواء من داخل القصر أو من الصحف المصرية وعلى رأسها جريدة «العلم» لسان حال الحزب الوطني، برئاسة محمد فريد.

وخلال الفترة التي قضتها جويدان في مصر استطاعت تكوين انطباعات عن مجتمع السادة وعاداتهم وتقاليدهم بحكم تنقلها بين القصور وبيوت الأثرياء، وضمنت مشاهداتها في مذكراتها التي حملت اسم «مذكرات الأميرة جويدان/ زوجة الخديوي عباس الثاني»، وكان أكثر ما لفت انتباهها الجواري والحريم.

خيال وواقع

كأوروبية، حاولت جويدان تفنيد الصورة الذهنية الخاطئة القابعة في عقول الأوروبيين حول الجواري في بلاد الشرق. كتبت: «لا يكاد الرجال، وعلى الأخص الأوروبيون، يسمعون كلمة الحريم، حتى ينصرف خيالهم إلى الرقص والغناء، أو بركة من الماء المعطر تلتف

حولها العذارى والفتيات يسبحن ويرقصن ويغنين».

وحسبما ذكرت، فإن «الحريم بكليته تسيطر عليه امرأة، وهي زوجة السيد أو أمه أو رئيسة الجواري، وفي كل هذه الحالات تحرص صاحبة السلطان على ألا تبدو الجارية أمام سيدها جميلة، فالزوجة تفعل ذلك بدافع الغيرة، والأم حرصًا على ألا يتزوج ابنها جارية، ورئيسة الجواري طمعًا في أن تصبح هي السيدة». وعلى هذا، فالجواري في مصر لسن أداة للتمتع واللهو، وإنما هن خادمات، وإن كنّ أقل من الخادمات حقوقًا. هن لا يتناولن أجرًا على خدمتهن، ولا يستطعن مغادرة بيت المخدوم إلى بيت سواه.

وظائف وأدوار وخطر محدق

ارتبط عدد الجواري في البيوت بمكانة أصحابها في المجتمع المصري. «كلما علا شأن البيوت زاد عدد الجواري فيها، لأن التقاليد في الحريم المصري تقضي بألا تقوم السيدة بعمل ما ولو كان في متناول يدها. تقديم القهوة له نظام خاص، وحمل الملابس له نظام خاص، وتقديم كأس من الماء له نظام خاص أيضًا، ولهذا قد يرى الإنسان كثيرًا من الجواري منهمكات ولا يرى عملًا يؤدى».

ومن نوع وظائفهنّ، حازت الجواري ألقابًا تحدد أدوارهن، فكانت وظيفة «سفرجي كالفة» الخدمة على مائدة الطعام فقط، و«قهوة كالفة» تقدم القهوة، بينما تقوم «شمورجي كالفة» بتحضير ملابس السيد، وينحصر عملها بين الحمام وغرفة الزينة وغرفة النوم.

ولأن وظائف الجواري كانت تتيح لهن الاحتكاك بالبك أوالباشا، فإن السيدة «هانم أفندي» كانت ترى فيهن الخطر، ولكي تأمن شرهن كانت تغرقهن بالهدايا لتكسب مودتهن، أو تنزل عليهن سخطها لتجعلهن حذرات من غضبها.

غير أن النتيجة في كلتا الحالتين لم تكن مضمونة. «لهذا كانت بعض السيدات مهتمات بخدمة أزواجهنّ بأنفسهنّ، إما بدافع الحب أو بدافع الحذر خصوصًا إذا كانت هذه السيدة أصلها جارية ثم أصبحت هانم أفندي»، فهؤلاء لديهنّ خبرة في إبعاد الجواري عن أزواجهنّ.

الباشا والجارية

كان البك أو الباشا رمزًا للسيادة داخل قصره فقط، بمعنى أنه لم يكن يعرف شيئًا مما يحدث داخل الحريم ولا يهتم بمعرفته. «إذا دخل البيت يلقاه الجميع بالخضوع وابتسامة لا تفارق الثغور، والويل لمَن تتقدم إليه بشكاية فإن هذا يعكر مزاجه، فما وُجد الحريم إلا ليدخل على نفسه السرور، فضلًا عن أنه لا يستطيع أن ينفع الجارية بشيء إذا شكت إليه، وربما جلب ذلك لها آلامًا جديدة».

وبحسب جويدان، «يبيح الدين للرجل أن يخالط جواريه،وينص على أن ابن الجارية لا يقل عن ابن السيدة في شيء، ولكن مَن ذا الذي يتبع تعاليم الدين؟» فالسيد يقضي ساعة لهوه وينتهي، بينما

تظل الجارية حبيسة الخوف من مراقبة العيون، ولا تستطيع أن تبوح بسرها لأحد.

ولا تستطيع الجارية حتى أن تبوح بسرها لجارية مثلها. والجواري يدعين بعضهن بـ«همشريم» أي أختي، وهن فعلًا أخوات في الشقاء والحرمان، ولكنهن أيضًا أخوات في الأمل والطموح والضعف، وربما باحت إحداهن بسر أختها تحت تأثير الخوف ليس إلا. وقد تبوح الجارية بسرها إلى أحد الأغوات، فقد تجد منه تعاطفًا أو تسمع منه كلمة تهوّن عليها ما بها، ولكنهن في النهاية جبانات لا يستطعن شيئًا. «وهكذا تظل المسكينة فريسة الخوف وهي تعلم أن سرها سيفتضح يومًا ما، وأنها إن استطاعت أن تحبس لسانها فإن جسمها سينم عنها».

وقد تفكر الجارية في أن تخبر سيدها بالأمر، ولكن كيف ذلك ولا تجمعها به إلا الطاعة العمياء، ثم هي تقوم على خدمته كل يوم فلا يلتفت إليها بعد تلك الليلة، بل قد يأخذ منها الملابس دون أن يلحظ أنها هي التي قضى معها ساعة لهوه منذ أسابيع أو شهور وحتى إذا أخبرته، فسيحيل أمرها إلى هانم أفندي لاتخاذ ما يلزم «والهانم لها أولاد ولا يعجبها طبعًا أن يكون هناك أولاد من غيرها يشاركون أولادها في الاسم والجاه والميراث».

هنا ينصب على الجارية غضب الهانم مزدوجًا، مرة بصفتها زوجة، وأخرى بصفتها أمًا. «وإذا أراد السيد ألا يحيل الأمر إلى زوجته، وفضل أن يخبر رئيسة الجواري لتدبر الأمر، فإن النتيجة لن تكون

خيرًا من الأولى، لأن الرئيسة تكون دائمًا في صف الهانم، وقد لا تخبر سيدتها بشيء ولكنها تأمر بأن تعفى الجارية من العمل وتلزم غرفتها، لا للراحة ولكن لتذوق العذاب».

وروت جويدان قصة جارية حبستها سيدتها في الغرفة وأمرتها بأن تحيك «ناموسية» (غطاء كبير من القماش الخفيف يوضع على أعمدة السرير من أعلى لمنع الذباب والبعوض من إزعاج النائم)، فكانت كلما حاكت جزءًا قطعته السيدة بحجة أنه خطأ، وترشد الجارية إلى الصواب، ويكون ذلك مصحوبًا باللكمات والقرصات، فإذا جاء اليوم الثاني وفعلت الجارية حسب الإرشاد اكتشفت السيدة خطأ جديدًا، وفعلت بها فعلة اليوم السابق.

الخرافة والسحر

تؤمن هوانم القصور جميعًا بالخرافات ويعتقدن في السحر لطرد حب الجواري من قلوب أزواجهن، بحسب جويدان. ومنهن مَن تأتي بعظام الحيوانات فتقرأ عليها التعاويذ وتبخرها، ثم تضعها تحت رأس زوجها لكي تطرد من قلبه حب جارية ما. ولا تدخر الواحدة منهن مالًا في سبيل الحصول على شراب الحب. «يجهزه بعض المشايخ، ويقرأون عليه عزائم وتعاويذ، فإذا شرب منه الزوج أحب زوجته إلى حد الجنون، وإذا أخفق فعل السحر فلا ينسب ذلك إلى كونه دجلًا لا طائل تحته، وإنما يُقال إن الهانم لم تستعمل السحر حسب الشروط المطلوبة».

ولم يكن مسموحًا للطبيب بالكشف على الحريم. «كان مرضى الحريم يداوين بطب التجارب (وصفات علاجية معتادة)، فإذا استعصى الداء واشتد الخطر جاءوا بالطبيب ولكن لا يسمحون له برؤية المريضة شخصيًا والكشف عليها، بل يتولى أحد الأغوات توصيل الكلام بين العليلة والطبيب، فيصف للطبيب أوجاع المريضة وما تحس به، وهذا يصف العلاج اللازم». عادةً لم يكن العلاج يأت بنتيجة، وفي هذه الحالة يعتبر أنصار الفكر القديم ذلك انتصارًا لهم ويتخذونه ذريعة للطعن في الطب والأطباء، وإذا حدث وشفي المريض فإن ذلك لا ينسب إلى مهارة الطبيب ولكن إلى تعويذة الشيخ أو إلى وصفة ما لإحدى السيدات. وبالتدريج سمح للطبيب بعيادة المريضة شخصيًا بشرط ألا يرى وجهها، فكانت تُحجب ولا تكشف إلا عن موضع الألم، ويكون رئيس الأغوات حاضرًا ساعة الكشف.

الأطفال والضرة

لم تكن سيدات القصر يفهمن الأمومة على حقيقتها. اتخذن الأولاد وسيلة لتوطيد مركزهن ودرء الخطر عنهن من طلاق عاجل أو زواج بأخرى، بحسب جويدان. «وإذا حدث أن تزوج الزوج بأخرى فإن الأم تصب غضبها عليهم لأنهم لم يستطيعوا درء الخطر فتحرمهم من اللعب والفسحة وتهمل شأنهم، وتقسو عليهم، وكأنها نسيت أنها تعذبت في حملهم شهورًا». غير أن البلوى قد تهون إذا كانت الضرة في داخل الحريم، فإن فرصة استرداد الزوج تكون كبيرة عبر

التحبب إليه وذكر مساوئ الزوجة الأخرى.

ولكن إذا كانت المنافسة إفرنجية يقابلها الزوج خارج المنزل وتحول جدران الحريم دون وصول الزوجة إليها، فإن الزوجة تبقى مكتوفة اليدين أمام عدوة لا تراها ولا تستطيع الوصول إليها.

*****

محمد حرب صالح..

مُفجر أول ثورة مسلحة ضد الإنجليز في مصر

في نوفمبر ١٩١٥، وبعد نشوب الحرب العالمية الأولى، تحالفت تركيا مع ألمانيا وأعلنت الحرب على إنجلترا، ومن ثم بدأت تحرشات الجيش التركي في ليبيا بمنطقة السمنا المصرية، ما دعا بريطانيا إلى اتخاذ قرار بإقامة قاعدة عسكرية في مطروح لمواجهة هذه العمليات.

وبالفعل، كلّفت سلطات الاحتلال البريطاني ضباطًا وجنودًا مصريين، بقيادة محمد صالح حرب، بإخلاء مناطق معينة تمهيدًا لإقامة هذه القاعدة، لكنهم أعلنوا ثورة مسلحة ضد الانجليز، وانضم إليهم متطوعون من قبائل مرسى مطروح والواحات في الصحراء الغربية، وكذلك متطوعون ينتمون إلى الطريقة السنوسية، بقيادة أحمد الشريف، في مصر وليبيا.

وفي مذكراته التي نشرها في مجلة «الشبان المسلمين»، وهي

مجلة شهرية كانت تصدر عن جمعية الشبان المسلمين، في أعداد مختلفة أعوام ١٩٥٧ و١٩٥٨ و١٩٥٩ و١٩٦٥، يذكر محمد صالح حرب أنه، وقت إعلانه الثورة على الإنجليز ليلة ٢٦ نوفمبر ١٩١٥، كان يشغل منصب قائد قوات الهجانة والسواحل والحدود في مرسى مطروح.

ويروي أنه بعد نشوب الحرب العالمية الأولى، أرسلت تركيا الضابطين نوري باشا وجعفر باشا إلى ليبيا، وأرادت أن تزج بالسيد أحمد الشريف و«المجاهدين» معه في حرب ضد الإنجليز في مصر، باستعدادات هزيلة، لكن الشريف كان يرفض الدخول في هذه المغامرة الفاشلة.

في تلك الأثناء، كلّف الحاكم العسكري لمطروح سيسل سنو بك «حرب» بترحيل جميع سكان مطروح من المدنيين وعائلات الموظفين، وبالقيام بجردة لكل ما في الدكاكين من بضائع وتقدير أثمانها وإعطاء أصحابها إيصالات لتحصيلها من الإسكندرية، وذلك تمهيدًا لاتخاذ المنطقة مركزًا للعمليات العسكرية ضد القوات التركية والسنوسية.

وفي ٢٣ نوفمبر، وصلت إلى ميناء مرسى مطروح ناقلات من الإسكندرية تحمل فرقة من الجنود الهنود، ومعها كل ما يلزم من مؤن وعتاد ومعدات للقتال، وعند الغروب وصلت ٣٦ سيارة مدرّعة عن طريق البر، ثم بدأ محمد صالح حرب عمله في تشكيل لجنة

جرد بضائع التجار.

لكن «حرب» اتخذ قراره بإعلان الثورة على الإنجليز في مطروح والانضمام بالضباط والجنود المصريين إلى القوات التركية وجيش السنوسي. ويروي في مذكراته أنه كان يعلم أن جيش السنوسي لن يصمد أمام الإنجليز وسيسحق، وكان يستصعب أن تنضم هجانة الحدود من الضباط والجنود المصريين إلى الجيش الإنجليزي لمحاربة إخوانهم العرب.

وبعد صلاة الصبح، في ٢٥ نوفمبر جمع الضباط والعساكر، وأخبرهم بما نوى عليه، وخيرهم بين الانضمام إليه أو العودة إلى بيوتهم، فما كان منهم إلا أن وافقوا على الثورة وقتال الإنجليز، وقالوا في صوت واحد «الرب واحد والعمر واحد والوطن واحد».

المواجهة العسكرية الأولى

كان أوّل ما فكر فيه «حرب»، بعد ذلك، هو أن الإنجليز إذا أصبح الصباح سيعرفون كل شيء، ولا بد أن يجردوا قوة سريعة تقتفي أثرهم وتتعقبهم، وتجعلهم مثلًا لمَن تحدثه نفسه بالخروج على بريطانيا العظمى، ومن ثم فكر في أن يقيم وبسرعة كمينًا يعيق تقدّم الإنجليز إذا حاولوا تعقبهم، ومتى فاجأهم فإنهم سيصرفون النظر عن التقدّم ويعتقدون أن هذا الكمين هو جزء من قوة لمقدمة الجيش السنوسي، فيعودون أدراجهم ليستعدوا لمقابلة هجوم السنوسي بهجوم يقومون به.

وحدث ما توقعه «حرب». فعندما اكتشف الإنجليز خروجه وخروج الضباط والقبائل عليهم جُنّ جنونهم، وكان أشدهم غضبًا الأميرالاي سنو بك الذي اقترح قيام قوة من الفرسان بتعقب «حرب»، حتى أنه رافق القوة، فإذا بالكمين يفاجئهم ويوقع بهم، وكانت خسائرهم كبيرة، وكان سنو بك أحد القتلى في هذه المعركة التي سُميت بمعركة وادي ماجد الأولى.

بعد ذلك، خرج «حرب» بالضباط والجنود إلى دار العاصي في منطقة زاوية أم الرخم، غرب مرسى مطروح بنحو ٢٠ كيلومترًا، والتي ازدحمت بالذين هبّوا لـ«الجهاد» بمجرد أن سمعوا الدعوة، واتجهوا جميعًا إلى الغرب .

غير أن هنالك أسباب محلية دفعت بسكان الصحراء الغربية للثورة على الإنجليز، أهمها القيود التي فرضتها قوات الاحتلال على البدو في التنقل من مكان لآخر، فضلًا عن المضايقات التي طالت البدويات.

وكانت مع «حرب» قوات الهجانة وبعض مشايخ الزوايا السنوسية وزعماء القبائل، وقصدوا منطقة سيدي براني لمقابلة قائد الفرقة التركية القابعة هناك جعفر بك، ثم اتجهوا إلى منطقة «مساعد» شرق ليبيا لمقابلة السيد أحمد الشريف، وإقناعه بالمشاركة في مقاومة الإنجليز.

ويذكر «حرب» في مذكراته أن الشريف وافق رغم غضبه الشديد

على العبث الذي يدور من حوله من جانب الضباط الأتراك، والذي سيؤدي إلى كوارث تحلّ على جيشه من أبناء القبائل ويذهب ضحيتها رجال أبطال دون تحقيق أي هدف، وإنما ليقال عن نوري وجعفر أنهما قاما بحركة ضد الانجليز، وهما يعلمان أنها حركة «مذبوحة» لأنهما لم يعدّا لها أي عدة.

جيش «المحافظية» ضد الاحتلالين الإيطالي والبريطاني

لم يكن إصرار صالح حرب على الحصول على موافقة أحمد الشريف من أجل جلب جيش كبير من خارج الحدود، ولكن لعلمه بتأثيره الكبير على الزوايا المصرية ومتطوعيها، دينيا وأدبيا وتنظيميا، حسبما ذكر عبد القادر طريف في كتابه «ثورة مصر المنسية / مقاومة الاحتلال البريطاني في مطروح والواحات».

ولم يكن أحمد الشريف يستطيع منع أتباعه من مقاومة المحتل الإنجليزي في مسقط رأسهم في مطروح، وهم الذين تطوعوا أصلًا مع السنوسي للجهاد ضد الإيطاليين. ولذلك، كان السنوسي مطالبًا برد الجميل ومساعدة المصريين في مقاومة الإنجليز.

وأطلق على هؤلاء المتطوعين مسمى «جيش المحافظية»، نسبة إلى حافظي القرآن الكريم في زوايا السنوسي على طول مطروح وعرضها، وغيرها من المحافظات، مثل زاوية عبد القادر في الإسكندرية، وزوايا حقور وأبو شوشة وحوش عيسى في البحيرة، وزاويتي أبو رواش وكرداسة في الجيزة، وغيرها.

وقبل الثورة على الإنجليز كان هذا الجيش يُجهّز ويُدرّب في هذه الزوايا، ويحصل على مؤونته وعتاده منها، إذ كانت الزوايا تجمع الطعام والأموال والسلاح من تبرعات أهل الخير، ومن أموال الزكاة والعشور والصدقات، وكذلك تجبي بعض الضرائب الإجبارية.
ووفرت هذه الطريقة ما يقرب من ١٠ آلاف وربما ١٣ ألف مقاتل شاركوا في معارك ضد الاحتلال الإيطالي في ليبيا، ثم في معارك مطروح ضد الإنجليز.

وكانت هذه الزوايا تمارس أنشطتها وتجنّد وتجمع الأموال تحت بصر الدولة، بل وساهمت الأخيرة فيها أحيانًا، كما في تنازلها عن جزء من ضرائب سيوة لصالح الزاويتين الموجودتين هنالك، لعجزها عن بسط نفوذها الكامل على تلك المناطق.

على كلٍ، قاد المتطوعون ضد الاحتلال الإنجليزي عبدالعاطي أبو أمحيفظة العميري من منطقة النجيلة في مطروح، وهو أحد أبناء زاوية النجيلة البحرية، وسليمان أبو حنيش العميري، وهو خريج من نفس الزاوية، والشيخ حسين جبريل العاصي شيخ زاوية أم الرخم في مركز مطروح وأحد أهم قادة معارك وادي ماجد، ومحمد عبد الجليل أبو العروية المحفوظي، خريج زاوية المثنان جنوب شرق سيدي براني، وعبد النبي المصري الذي استشهد في معركة وادي ماجد، وغيرهم.

معارك عدّة وانقسام الثوار

بحسب أبو الفتح الصفتي، في كتابه «جهاد قبائل الصحراء الغربية ضد الاحتلال الإنجليزي ١٩١٥ - ١٩٢٣»، ضمّ قوام الثورة قوات الهجانة الموزعة على أقسام الحدود من مطروح حتى السلوم، وقبائل أولاد علي وجيش السنوسي والحامية العثمانية.

ويروي أن ثاني المعارك التي وقعت بين الثوار والإنجليز كانت معركة وادي ماجد الثانية في ١٣ ديسمبر ١٩١٥، وانتهت في نفس اليوم دون خسائر من الطرفين .

وفي ١٨ يناير ١٩١٦ وقعت معركة بير أبو تونس شمال غرب مرسى مطروح بـ٧٠ كيلو مترًا، وشارك فيها أحمد الشريف وصالح حرب ونوري باشا وجعفر باشا، وقُدّر عدد الانجليز بثلاثة آلاف جندي وضابط تساندهم عربات المدافع والطائرات، ومع ذلك تجاوزت خسائرهم ٥٠ قتيلًا، وأكثر من ٢٠٠ حصان من قوة الفرسان الإنجليزية.

ويروي طريف، نقلًا عن الدكتور محمود دياب في كتابه «الكفاح الإسلامي»، أن المجاهدين في معركة بير تونس كانت تنقصهم المؤن والذخائر، وكانت الأرض مكشوفة ويصعب السيطرة عليها، لذلك دار نقاش حاد بين القادة العسكريين، وطلب صالح حرب بالانتقال إلى الواحات وممارسة حرب العصابات، لأن التضاريس تسمح بذلك بعكس أرض مطروح المكشوفة التي تُعتبر مكانًا مثاليًا لتحرك المدرعات والسيارات الإنجليزية، فضلًا عن أن الساحل في صالح الإنجليز حيث تمدهم السفن والبوارج بالإمدادات وتشارك

في القتال. غير أن الضابط التركي نوري باشا أصرّ على الاستمرار في المناوشات الساحلية لقربها من الإسكندرية.

واتُفق في النهاية على أن ينقسم المقاتلون إلى مجموعتين: الأولى تتوجه إلى الواحات وتضم السيد أحمد الشريف ومجموعته والضباط والجنود المصريين النظاميين ويقودها عسكريًا «حرب»، وكان عدد مقاتليها ٣٥٠٠ شخص، وانضمت لها كتيبة من أبناء سيوة. فيما استمرت المجموعة الثانية بالقتال في مطروح والساحل، وكان عدد مقاتليها ستة آلاف شخص، وجميعهم من أبناء مطروح، إضافة إلى بضعة ضباط وجنود أتراك، وكان يقودها نوري وجعفر.

المجموعة الثانية هي التي حضرت آخر المعارك في المناطق الساحلية، وهي معركة العقاقير في أواخر يناير ١٩١٦، وهُزم في نهايتها «المجاهدون» وتشتت جيشهم، وأُسر الضابط التركي جعفر باشا وأربعة ضباط أتراك وبعض المقاتلين.

تذكر انك حملت كتاب وجوه منسية حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك.

وبانتهاء هذه المعركة، تشتت قوات «المجاهدين»، وبعدها دخل الإنجليز السلوم يوم ٢٤ مارس دون قتال، ثم دخلوا الواحات الداخلة والبحرية والفرافرة في أكتوبر ونوفمبر من سنة ١٩١٦، وفي

فبراير ١٩١٧ دخلوا واحة سيوة.

ويذكر الصفتي أن بعض زعماء ومشايخ القبائل قُبض عليهم وهم جرحى في المعارك، والبعض الآخر قبض عليهم في الحملة التي قامت بها قوات الاحتلال عقب معركة العقاقير لهدم الزوايا السنوسية والمنازل ومصادرة الأموال، وزُجّ هؤلاء إلى سجون طرة في القاهرة وأبي زعبل في القليوبية وسراي الاعتقال السياسي في الجيزة وبلبيس، وكان أبرزهم العمدة فرج زهيويق، وولده داود فرج، وحميدة جبريل، والشيخ هارون بدر، وحميدة عطيوة، وحميدة كريم.

وقضى هؤلاء في سجون الاعتقال ثلاثة سنوات، ثم أعيدوا بعدها إلى مطروح للمحاكمة، وقضت المحكمة العسكرية الإنجليزية على معظمهم بالإعدام، ثم خُفف الحكم إلى الأشغال الشاقة ٢٥ عامًا، واستمروا في السجون حتى صدر عفو شامل عنهم سنة ١٩٢٣.

أحكام إعدام ثم عفو شامل

ويذكر طريف أن الضباط والجنود المصريين، والذين زاد عددهم عن ١٣٤ شخصًا في أغلب الإحصاءات، وعلى رأسها الإحصاءات الإنجليزية، انتقلوا إلى منطقة الواحات المصرية حيث احتلوا واحات «البحرية» و«الفرافرة» و«الداخلة»، وهنالك بدأت حرب عصابات ضد الاحتلال طوال عام ١٩١٦ وأوائل عام ١٩١٧، وانتهت بتضييق القوات البريطانية الخناق على القوات المصرية، ما

اضطرها إلى الانسحاب إلى واحة جغبوب.

وقتها، وصل أحمد الشريف خطاب من محمد إدريس السنوسي الموجود في منطقة عكرمة، في شمال شرق ليبيا، يقول فيه إن الانجليز هددوه بتدمير جغبوب ونسف ضريح مقام والده محمد بن علي السنوسي، إذا لم يبرح أحمد الشريف الواحة، ما ترتب عليه مغادرة الشريف وحرب ومَن معهما جغبوب إلى واحات جالو وأوجلة في ليبيا، لتنتهي بذلك مقاومة الإنجليز في الواحات المصرية.

وبعدها، انتقل الضباط المصريون إلى الجهاد ضد الطليان، ومنهم مَن سافر إلى تركيا بعدما صدرت ضدهم في مصر أحكام عسكرية بالإعدام.

واستمر هذا الوضع حتى قامت ثورة ١٩١٩ في مصر، ثم إعلان استقلال جزئي في مصر عام ١٩٢٠، أعقبه إعلان دستور عام ١٩٢٣، وأجريت بموجبه أول انتخابات برلمانية، تولّت بعدها حكومة سعد زغلول زمام الأمور، وأعلنت عفوًا عامًا في البلاد عن كل المحكوم عليهم في قضايا سياسية سابقة، فعاد هؤلاء الضباط من تركيا، وأفرج عن المسجونين في مصر.

أما صالح حرب فصار عضوًا في مجلس النواب بالانتخاب لعدة دورات، ثم اختير وزيرًا للحربية في حكومة علي ماهر عام ١٩٣٩.

وكان من بين مَن شارك في هذه الثورة عبد الرحمن عزام، الذي

عاد من تركيا وانتخبه المصريون نائبًا لأكثر من دورة، ثم عُيّن وزيرًا، وهو صاحب فكرة إنشاء جامعة الدول العربية، واختير كأول أمين عام لها، واستمر في منصبه عدة سنوات.

أما الضباط من رفاق صالح حرب، فعادوا إلى القوات المسلحة، ومنهم مَن وصل إلى رتبة لواء مثل الأميرالاي محمود علي عبد الواحد، ومنهم مَن عُيّن محافظًا مثل علي عبد الوهاب، محافظ مطروح، وعلي شاهين، محافظ سيناء

* * * * *

قائمة بأهم المراجع

- أحمد فؤاد متولي: الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٩٥.

- أسعد رزق: إسرائيل الكبرى/ دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، ١٩٦٨.

- أشرف محمد حسن علي: الآثار المصرية المستباحة.. الإدارة المصرية والآثار في القرن التاسع عشر دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٦.

- السيد عبدالرازق الحسني: البابيون في التاريخ، مطبعة العرفان،

صيدا، ١٩٣٠.

- أمين عبدالله محمود: مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٤.

- أوليا چلبي، سياحتنامه مصر، ترجمه إلى العربية الدكتور الصفصافي أحمد القطوري بعنوان «الرحلة إلى مصر وبلاد السودان والحبشة»، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٠.

- أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية في مصر/ تفسير جديد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧.

- إدوارد براون، تاريخ الأدب في إيران «الجزء الأول»، ترجمة أحمد كمال الدين حلمي، ترجمة أحمد كمال حلمي، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥.

- إدوارد لين: عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم، ترجمة سهير دسوم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١.

- إلياس يوحنا الموصلي: رحلة أول شرقي إلى أمركة، تحقيق أنطون الرياط، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٧.

- بندلي جوزي: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ١٩٨١.

- تيودور روذستين: تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطاني وبعده،

ترجمة علي أحمد شكري، مكتبة الهلال، القاهرة، ١٩٢٧.

- جلال أمين: قصة الاقتصاد المصري من عهد محمد علي إلى عهد مبارك، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٢.

- جوزيف ماري مواريه: مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر ترجمة كاميليا صبحي، المركز الأعلى للثقافة، القاهرة،٢٠٠٠.

- جويدان عبدالله: مذكرات الأميرة جويدان/ زوجة الخديوي عباس الثاني، دار الهلال، القاهرة، ١٩٨٠.

- حامد محمود عيسى: المشكلة الكردية في الشرق الأوسط منذ بدايتها حتى عام ١٩٩١، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٢.

- حسين عطوان: الدعوة العباسية ـ مبادئ وأساليب، دار الجليل، بيروت، ١٩٨٤.

- حسين قاسم العزيز: البابكية ـ الانتفاضة ضد الخلافة العباسية، دراسات المدى، دمشق، ٢٠٠٠.

- خالد عزام: موسوعة التاريخ الإسلامي / العصر العباسي، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٩.

- شوقي عطا الله الجمل: المغرب العربي الكبير في العصر الحديث «ليبيا - تونس - الجزائر – المغرب»، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٧.

- عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل/ الجزء الثاني، دار المعارف،

القاهرة، ١٩٨٢.

- صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي ١٨١٤- ١٨٣٠، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١٢.

- صموئيل تاوضروس: باباوات الكرسي الإسكندري ١٩٧١/١٨٠٩، سلسة تاريخ البطاركة، مطبعة حجازي، القاهرة، ١٩٧٧.

- صوفيا بول: حريم محمد علي باشا رسائل من القاهرة ١٨٤٢ - ١٨٤٦، ترجمة عزة كرارة، دار سطور، القاهرة، ١٩٩٩.

- عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر (الجزء الثاني)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧.

- فيليب رينييه: السان سيمونيون في مصر ١٨٣٣ - ١٨٥١، ترجمة أمل الصبان، وأنور مغيث، وداليا الطوخي، المركز القومي للترجمة، القاهرة ٢٠١١.

- محسن محمد، سرقة ملك مصر، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٠.

- محمد مصطفى هدارة: المأمون.. الخليفة العالم، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦.

- مصطفى عبد الله بعيو: المشروع الصهيوني لتوطين اليهود في ليبيا، الدار العربية للكتاب، ليبيا وتونس، ١٩٧٥.